الفصل الرابع

استعجال الكافرين والذم القرآنى لهم

الفصل الرابع

استعجال الكافرين والذم القرآني لهم

مدخل:

عندما تعجل الأنبياء والمرسلون – عليهم الصلاة والسلام – ما عجلوا إلا لله ، وأنفة لدينه ، ورغبة في إعلاء كلمته ، وعندما تعجل الصحابة – رضوان الله عليهم – ورد في تعجلهم العتاب واللوم والتوجيه والعفو عنهم نظرا لعلو مقامهم ، وما كان لهم من دور فعال في إعلاء كلمة الحق وظهور الدين الإسلامى الحنيف .

وما نتحدث عنه فى هذا الفصل ليس من هذا ولا ذاك . وإنما هى عجلة مذمومة ، ذمها القرآن لما فيها من الخفة والطيش والاستهزاء بالله ، والعناد والمكابرة . وهو ما وقع من الكفار – عليهم لعنة الله– فهؤلاء الحمقى يستعجلون ما هو شر لهم ، ولو علموا مآلهم ما استعجلوا. ولكن السفه والجهل جعلهم يدعون على أنفسهم بالشر ، كما كانوا يدعون لأنفسهم بالخير ، قال تعالى :"**ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا**"[١].

فقد قيل إن هذه الآية" نزلت فى شأن قريش الذين قالوا :" **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** "[٢] .. وكان الأولى أن يقولوا فاهدنا إليه وارحمنا به ، فذمهم الله تعالى فى هذه الآية بهذا"[٣].

يقول صاحب (البحر) :"إن بعض من لا يؤمن بالآخرة كان يدعو على نفسه بتعجيل ما وعد به من الشر فى الآخرة"[٤] ونلاحظ من سياق الآيات القرآنية أن هذه الآية ذكرت بعد قوله تعالى:"**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما** "[٥].

قال الإمام أبو السعود – رحمه الله – :"هذه الآية إنما ذكرت لبيان حال المهدي إثر بيان حال الهادى وإظهار لما بينهما من التباين"[٦] فشتان بين من تأدب بآداب القرآن فأصبح ذا تؤدة وحلم وأناة وصبر ، يميز بين حالتي الدعاء بالخير والدعاء بالشر ، وبين من لم يتخلق بأخلاقه ولم يتعلم تعاليمه ، فأصبح سريع الضجر، عجولا ، لا يميز بين دعائه لنفسه ودعائه عليها .

وهذا ما سأناقشه – بعون الله – من خلال هذا الفصل

---

(١) سورة الإسراء ، الآية: ١١
(٢) سورة الأنفال ، من الآية: ٣٢
(٣) المحرر الوجيز ، ٤٤١/٣
(٤) البحر المحيط ، ١٣/٦
(٥) سورة الإسراء ، الآيتان: ٩ ، ١٠
(٦) إرشاد العقل السليم ١٥٨/٥

البحث الأول

استعجال مشركي مكة

لقد كان مشركو مكة دائما ما يستعجلون الضر لأنفسهم استهزاء منهم برسول الله -ﷺ- وعنادا ومكابرة للحق المنزل لهم من عند المولى -ﷻ- وكان هذا فى أمور عدة ، ورد فيها النص القرآني إما تصريحا أو تلويحا:

أولا :استعجال العذاب والساعة

ثانيا :استعجال إزالة الضرر، والفرح والفخر عند زواله.

ثالثا :استعجال النصر.

رابعا :استعجال الآيات.

خامسا :استعجال الثواب في الدنيا.

أولا :-استعجال العذاب والساعة :

بعث الله -ﷻ- سيدنا محمد -ﷺ -إلى أهل مكة ؛ ليخرجهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور العلم والإيمان ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك ما دونه من الأوثان التى لا تضر ولا تنفع ، ودعاهم إلى دين يوحد بينهم جميعا لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح ، ووعدهم الثواب العظيم ، وجنة عرضها السماوات والأرض إذا امتثلوا لأمر الله ، وساروا على منهاجه ، وأنذرهم العقاب الشديد ، والعذاب الأليم .. إذا خالفوا أمره ، وأعرضوا عن منهاجه ، ولكن القوم ظلوا فى عناد ومكابرة وجهل ، فكانوا كلما أنذرهم رسول الله بالعذاب ، استعجلوه استهزاءا وإنكارا فى سفه وضلال ، وهذا ما حكاه القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، قال عز من قائل حاكيا عن سفاهتهم باستعجالهم العذاب :"**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**"[1].

فهؤلاء قد بلغ بهم الجهل والعناد والمكابرة فسألوا هذا السؤال ، وهو إن دل فإنما يدل على غباء وحماقة سائليه ، إذ لو كان لديهم أدنى تدبر وتفكير ومنطق وعلم بحقائق الأمور ما قالوا هذا ، وما استعجلوا نزول العذاب بهم . ولقد اختلف فى قائل هذه المقولة الشنعاء .. فقيل : هو النضر بن الحارث[2] .. وقيل : أبو جهل بن هشام[3] .. وقيل : كفار قريش[4].

---

[1] سورة الأنفال ، الآية: ٣٢ .

[2] هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار ، يكنى أبا قائد ، وكان اشد قريش فى تكذيب النبى والأذى له ولأصحابه ، وكان ينظر فى كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى .. أسره المقداد يوم بدر ، وأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه فقتله على بن أبى طالب صبرا بالأثيل . (الكامل فى التاريخ ، لأبي الحسن على بن ابى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ٥٩٤/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥هـ ، الطبعة الثانية ، تحقيق عبد الله القاضي) .

[3] أبو جهل بن هشام المخزومى كان أشد الناس عداوة للنبي وأكثرهم أذى له ولأصحابه ، اسمه عمرو وكنيته أبو الحكم ، أما أبو جهل فالمسلمون كنوه به وهو الذى قتل سمية أم عمار بن ياسر وأفعاله مشهورة . وقتل ببدر قتله أبناء عفراء وأجهز عليه عبد الله بن مسعود . (الكامل فى التاريخ ٥٩٤/١).

[4] انظر روح المعاني ١٩٩/٩ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الرابع ٢٥٢/٧ ، البحر المحيط ٤٨٨/٤.

والقول الثالث هو ما أميل إليه ؛ لأنه عام ولا داعي هنا للتخصيص ، فالكل مشترك فى طلب العذاب سواء بالتلفظ به أو الموافقة عليه ، ويدل على هذا أن القرآن لم يسند هذا الطلب إلى شخص بعينه ، بل أسنده إلى الكل فقال :"وإذ قالوا" ، ولم يقل :"وإذ قال" ، وهذا إن دل فإنما يدل علي أن الكل سواء فى الجهل والسفه واستعجال العذاب والإلحاح فى طلبه ، "والإشارة فى قولهم "هذا" إلى القرآن أو ما جاء به الرسول -ﷺ- من التوحيد وغيره أو نبوة سيدنا محمد -ﷺ- من بين سائر قريش"[1] والقول فيما أرى : إن الإشارة فى قوله "هذا" إلى القرآن الكريم ؛ لأن سياق الآيات تدل عليه ، فقبل هذه الآية حديث عن نوع آخر من أباطيلهم وهو الإدعاء أن القرآن أساطير الأولين .قال تعالى :"**وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين**"[2] فرد عليهم رسول الله -ﷺ-مخبرا إياهم أن القرآن حق وأنه منزل من عند ربه ، فقالوا : إن كان حقا فأمطر علينا حجارة أو ائتنا بعذاب أليم وهذا ما أخبر به فى الآية التى نحن بصددها ، ولا مانع من دخول ما جاء به سيدنا محمد -ﷺ-من التوحيد ؛ لأن القرآن شامل لكل ذلك وكذلك نبوة محمد-ﷺ- لأن إنزال العذاب بهم يدل على صدق نبوته ﷺ.

ومعنى الآية "واذكر يا محمد حين قالت قريش : اللهم إن كان هذا القرآن هو الحق المنزل من عندك فعاقبنا بإنزال حجارة ترجمنا بها من السماء ، أو ائتنا بعذاب مؤلم سوى ذلك"[3].

ولكن لماذا قال المشركون ذلك ؟.. يجيبنا الإمام القرطبى قائلا :"الشبهة كانت فى صدورهم ، أو على وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة"[4] وقيل :"المراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه"[5] يذكر الإمام الماوردى فى هذا الشأن وجهين:

أولهما : أنهم قالوا ذلك عنادا للحق وبغضا للرسول-ﷺ- ، الثاني : أنهم قالوا ذلك اعتقادا أنه ليس بحق"[6].

ولا مانع من إرادة الوجهين وأنهم قد نطقوا بهذا القول عنادا وبغضا للرسول -ﷺ- واعتقادا منهم أنه ليس بحق وأن القرآن من عند نفسه وليس من عند الله -ﷻ- وهذا كله إنما يدل على فساد فطرة هؤلاء القوم ، أفسدوها بعنادهم واستكبارهم ، فهم قد شكوا فى نبوة محمد-

---

(1) البحر المحيط ٤٨٨/٤ ، الناشر دار الكتاب الإسلامى ، القاهرة .
(2) سورة الأنفال ، الآية: ٣١ .
(3) التفسير المنير ٣١٣/٩.
(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الرابع ٢٥٢/٧ .
(5) إرشاد العقل السليم ١٩/٤ .
(6) النكت والعيون للماوردى ٣١٣/٢ .

ﷺ – والشاك من شأنه أن يدعو الله للهداية إلي طريق الصواب ولكنهم بدلا من أن يدعو الله بالهداية دعوا بالعذاب ، فآثروا الهلاك على النجاة والضلال على الهدي ، وفي هذا يقول المرحوم سيد قطب مخبرا عن غرابة صدور هذا الطلب من هؤلاء القوم : "هو دعاء غريب يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق ، حتى ولو كان حقا ! .. إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق وأن يهديها إليه ، دون أن تجد في هذا غضاضة ، ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامح تأخذها العزة بالإثم ، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحا لا ريب فيه"[1] ونلمح من هذه الآية ؛ أن المشركين قد علقوا كون القرآن حقا على نزول العذاب من السماء ؛ لذا فقد جاء لفظ "الحق" معرفا وفائدة هذا التعريف كما قال الإمام أبو السعود : " فيه دلاله على أن المعلق به كونه حقا على الوجه الذي يدعيه الرسول–ﷺ– وهو تنزيله لا الحق مطلقا ؛ لتجويزهم أن يكون مطابقا للواقع غير منزل كالأساطير"[2].

ومما يدل على حماقة هؤلاء القوم وجهالتهم ، أنهم اعترفوا بهذا الدعاء على وجود الإله حيث قالوا " اللهم " كما اعترفوا بأن ما لديه حق لقولهم "حق من عندك" وهذا يدل على أن استكبارهم وعنادهم إنما هو كراهية لذات محمد –ﷺ– ، وإباء منهم أن يكون قد اختص بالنبوة من بينهم وهو الفقير اليتيم وهم الرؤساء الأشراف ، قال تعالي مخبرا عنهم : "**وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين**[3]**عظيم**"[4] هذه الكراهية هي التي من أجلها حملتهم على الدعاء بنزول العذاب كما نزل على الأمم السابقة الذين تمردوا واستهزءوا برسلهم ، لعلمهم أن من يكذب الرسل ويرفض منهجهم يحل به العذاب من الله ،وهذا كله استهزاء بنبوة سيدنا محمد –ﷺ– وعدم التصديق بها ، يذكر الإمام القشيري في هذا الشأن ما نصه :"دل سؤالهم العذاب على تصميم عقدهم على تكذيب الرسول–ﷺ– واستيقنوا عند أنفسهم أنه لا يستجاب فيهم ما يدعونه على أنفسهم ، وفي هذا أظهر دليل على أن سكون النفس إلى الشئ ليس بعلم ، لأنه كما يوجد مع العلم يوجد مع الجهل"[5] ولم يقف الأمر عند حد التكذيب واستدعاء نزول العذاب عليهم بل لقد بلغت سفاهتهم وحماقتهم إلى الغاية التى جعلتهم يحددون لأنفسهم نوع المنزل عليهم ، فقالوا "فأمطر علينا حجارة من السماء" ، وهي "الحجارة المسومة للعذاب ، يروي أنها حجارة

---

[1] في ظلال القرآن ، سيد قطب ١٥٠٥/٣ .
[2] إرشاد العقل السليم لأبي السعود ، ١٩/٤ .
[3] المعني على رجل من رجل القريتين عظيم . والرجلان أحدهما ، الوليد بن المغيرة المخذومي ، من أهل مكة ، والآخر حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، من أهل الطائف . والقريتان هما مكة والطائف (راجع معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٠٩/٤ عالم الكتب).
[4] سورة الزخرف ، الآية: ٣١.
[5] لطائف الإشارات ٦٢١/١.

من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم" [1] والحكمة من قولهم "من السماء " مع أن الأمطار لا تكون إلا منها هي ، مقابلتهم مجيئ الأمطار من الجهة التي ذكر الرسول -ﷺ- أنه يأتيه الوحي من جهتها ، والمعني : " أنك تذكر أن الوحي يأتيك من السماء ، فأتينا بعذاب من الجهة التى يأتيك منها الوحي ، وهذا على سبيل الاستبعاد والاعتقاد أن ما أتي به ليس بحق"[2] والعذاب المذكور في قوله : "أو ائتنا بعذاب أليم" .. إما أن يراد به العذاب الأليم غير أمطار الحجارة بقرينة المقابلة ، ويصح أن يكون من عطف العام على الخاص[3]"[4].

والخلاصة : أن هؤلاء المشركين قد بلغوا الغاية القصوي في الجهل والعناد ، مما جعلهم يستعجلون العذاب لأنفسهم بل ويحددون نوعه . ولكن الله قد جعل لكل أمر وقتا محددا وهو أعلم بالمصلحة ، والله تعالي أعلم .

ونظير هذا الطلب قوله تعالى على لسانهم :" **أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا**"[5] وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أن هذا الطلب كان ضمن مطالب عدة طلبها المشركون من رسول الله -ﷺ- لكي يؤمنوا به ، استهزاء به- ﷺ- فقد روى عن ابن عباس - ﷺ- أن نفرا من رؤساء قريش[6] اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه .. إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعا وهو يظن أنه قد بدا فى أمره بداء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه تعنتهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : يا محمد ، إنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، وما بقى أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت ما جئت به لتطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثر مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الرائي الذي يأتيك تراه قد غلب عليك ، (وكانوا يسمون التابع من الجن الرائي) بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر ، فقال رسول الله -ﷺ- ما بي تقولون ، ما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا للملك عليكم ، ولكن الله -ﷻ- بعثني إليكم رسولا وأنزل على كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على

---

[1] روح المعاني للألوسي ٩/٢٠٠.
[2] راجع البحر المحيط ٤/٤٨٩.
[3] والعام "العذاب الأليم "لأنه شامل كل أنواع العذاب ، والخاص " الحجارة " فهي جزء من العذاب ، كأنهم خصصوا لأنفسهم نوع العذاب ثم عمموه والمعني: انزل علينا حجارة من السماء أو أي نوع من أنواع العذاب.
[4] راجع روح المعاني ٩/٢٠٠.
[5] سورة الإسراء ، الآية: ٩٢ .
[6] منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأبو البحتري ، والوليد بن المغيرة وآخرون .

أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم ، قالوا : يا محمد ! فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلادا ولا أقل مالا ، ولا أشد عيشا منا ، سل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك فليسير عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا ، أو يبسط لنا بلادنا ويجرى فيها أنهارا ، وأن يبعث لنا من مضى من آبائنا فنسألهم عما تقول .. أحق هو !.. فإن صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول ، فقال رسول الله ﷺ : ما بهذا بعثت ، إنما جئتكم من عند الله سبحانه بما بعثني به ، فقد أبلغتكم ما أرسلت به ، فإن تقبلوا فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه أصبر لأمر الله . قالوا : فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك ، وسله فيجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك ، فإنك تقوم فى الأسواق وتلتمس المعاش ، فقال رسول الله ﷺ : ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ، قالوا : فأسقط علينا كسفا من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله إن شاء فعل . فقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا ، وقال آخر : لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما وترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتى بنسخة منشورة معك ، ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ؛ فانصرف رسول الله -ﷺ- إلى أهله حزينا لما فاته من متابعة قومه ، ولما رأى من مباعدتهم منه ، فأنزل الله قوله :" **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا** .....الآيات[1]"[2].

هذه كانت مطالب المشركين من رسول الله -ﷺ- ولو تفحصناها لتبين لنا أنهم طلبوا ما فيه خير لهم بقولهم لن نؤمن حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، ثم انتقلوا إلى ما فيه شر لهم بقولهم "أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا" ، ويوضح الإمام ابن عاشور السر فى هذا الانتقال فيقول ما نصه :"أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا" انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى خوارق فيها مضرتهم ، يريدون بذلك التوسيع عليه ، أي فليأتنا بآية على ذلك ولو فى مضرتهم"[3].

وسأناقش- بإذن الله - هذه المطالب فى موضع آخر من هذا البحث ، وما نعنيه هنا هو استعجال العذاب المعبر عنه بقولهم :"أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا" ، ولقد اختلف فى

---

(1) سورة الإسراء ، الآيات: ٩٠ : ٩٣ .

(2) راجع أسباب النزول للواحدى ١٦٨ : ١٧٠ ، البداية والنهاية لابن كثير ٥٠/٣ ، ٥١ ، تفسير البغوى ١٣٧/٣ ، مفاتيح الغيب ، المجلد الحادي عشر ٤٨/٢١ ،تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٣/٣ ، ٦٤ .

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٠٩/١٥ .

قراءة كسفا . فبعض القراء[1] قرأها بفتح السين ، جمع " كسفة " كقطعة وقطع ، والبعض الآخر بإسكانها ، جمع " كسفة " كسدرة وسدر[2].

ولاختلاف القراءة اختلف المعنى ، فعلى القراءة الأولى " كسفا " بمعنى القطعة ، وعلى القراءة الثانية " كسفا " إسقاطها إطباقا علينا ، واشتقاقه من كسفت الشئ إذا غطيته[3].

ونزيد الأمر وضوحا : من قرأ بالفتح أراد جزء من السماء ، أي تنزل علينا قطعة قطعة .. ومن قرأ بالسكون أراد السماء جميعها ، أي تنزل علينا كتلة واحدة ، والوجه الأول (الفتح) : أولى عندي لعدة أسباب :

الأول : أن المشركين لو كان مرادهم إطباقها عليهم كتلة واحدة لاكتفوا بقولهم "أو تسقط السماء كما زعمت" دون التعبير بقولهم " كسفا ". لأن إطلاق لفظ السماء يراد بها جميعها .

الثاني : أن رسم المصحف لقوله " تسقط " جاء بضم التاء وكسر القاف مما يدل أن السماء تتساقط قطعة قطعة . ولو كان المراد جميعها لقرأت بفتح التاء وضم القاف " تسقط " ، ولأن هؤلاء المستهزئين طلبوا هذا الطلب استبعادا منهم بإمكانية وقوعه عبروا بلفظ الزعم المذكور فى قوله "كما زعمت" ، والمقصود من هذا اللفظ كما قال ابن عاشور :"القول المستبعد أو المحال"[4].

والمراد :"كما زعمت يا محمد أنك نبي فأسقط السماء علينا" ، وقيل :"كما زعمت أن ربك إن شاء فعل"[5] ، وقيل يمكن أن يكون المراد ما ذكره الله تعالى فى هذه السورة فى قوله:"**أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا**[6]"[7] .. فقيل "اجعل السماء قطعا متفرقة كالحاصب وأسقطها علينا"[8] ، وزاد أبو حيان:"أن هذا إشارة إلى قوله " **إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء** [9]"[10].

---

(1) نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر.

(2) راجع إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢٠٥/٢ بتصرف عالم الكتب ، الأولى ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م ، تحقيق د/ شعبان محمد إسماعيل. وراجع أيضا . التيسير فى القراءات السبع لابن عمرو الداني صـ ١٤١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

(3) راجع معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٥٩/٣ بتصرف ، معاني القرآن للفراء ١٣١/٢ ، تحقيق ومراجعة أ/ محمد على النجار .

(4) التحرير والتنوير ٢١٠/١٥ .

(5) الخسف ، سوخ الأرض بما عليها ، خسفت تخسف خسفا وخسوفا وانخسفت ، وخسفها الله ، وخسف الله به الأرض خسفا أي غاب بما فيها (راجع لسان العرب ١١٥٧/٢ ، باب الخاء) .

(6) الحصب والحصبة ، الحجارة والحصى(راجع لسان العرب ٨٩٢/٢ ، باب الحاء) ، قال الزجاج رحمه الله ، الحاصب ، التراب الذي فيه الحصاء والحصباء والحصى الصغار(راجع معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٥١/٣ ، عالم الكتب).

(7) سورة الإسراء ، من الآية: ٦٨ .

(8) مفاتيح الغيب ، المجلد الحادي عشر ٤٨/٢١ بتصرف .

(9) سورة سبأ ، من الآية: ٩ .

(10) راجع البحر المحيط ٧٩/٦ .

ولم يكن استعجالهم فقط للعذاب المعد لهم فى الدنيا ، كما نزل بمن سبقهم من الأمم المكذبة ، بل كانوا أيضا يتعجلون العذاب المعد لهم فى الآخرة ، قال تعالى حاكيا عنهم حماقتهم:"**وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب**"[1] .. وهذه الآية هى الشبهة الثالثة من شبهات الكافرين التى تعجلوا من خلالهم مجيئ منذر من بينهم .

يذكر الإمام الرازي فى هذا الشأن عند تفسير قوله تعالى:" **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم**"[2] .. ما نصه : "إن القوم تعجبوا لشبهات[3]ثلاث (الأولى : تتعلق بالإلهيات وهو قوله:"**أجعل الآلهة إلها واحدا**"[4] .. والثانية : تتعلق بالنبوات وهو قوله :" **أأنزل عليه الذكر من بيننا**"[5] .. والثالثة : تتعلق بالمعاد وهو قوله :"**وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب**" .. وذلك لأن القوم كانوا فى نهاية الإنكار للقول بالحشر[6] والنشر[7] وكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته"[8] والقط المذكور فى هذه الآية له عدة معان :

المعنى الأول : الصحيفة ، قال الفراء : "القط الصحيفة المكتوبة وفى كلام العرب ، القط: الصك وهو الحظ والكتاب"[9] . وعلى هذا المعنى فالمراد من هذا الطلب "عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها"[10] وسبب استعجالهم هذا " هو أنه لما نزل قوله :" **فأما من أوتي كتابه بيمينه**"[11] .. قالت قريش : زعمت يا محمد أنا نؤتى كتابنا بشمائلنا ؟ .. فعجل لنا قطنا ، يقولون ذلك تكذيبا له"[12]يذكر الإمام أبو بكر الجزائري فى معنى الآية ما نصه :" ربنا عجل لنا

---

(1) سورة ص ، الآية:١٦ .
(2) سورة ص، من الآية: ٤ .
(3) وهذا على زعمهم الفاسد ، وإنما هى حقائق ثابتة أرسخ من الجبال الرواسي .
(4) سورة ص ، من الآية: ٥ .
(5) سورة ص، من الآية: ٨ .
(6) قال ابن منظور ، حشرهم يحشرهم حشرا ، جمعهم (لسان العرب ٨٨٢/٢ ، باب الحاء مادة حشر) وهو عبارة عن إعادة الخلق بعد العدم ونشأتهم بعد الرحم . (راجع غاية المرام لعلى بن أبى على بن محمد بن سالم الآمدى صـ ٢٩٩ . المجلس الأعلى القاهرة ١٣٩١ ، تحقيق ، حسين محمود عبد اللطيف).
(7) نشر الميت فهو ناشر ، عاش بعد الموت ، ومنه يوم النشور ، وأنشره الله ، أحياه (مختار الصحاح صـ ٢٧٥ ، باب النون) قال أبو حامد الغزالي ، الحشر والنشر قد ورد بهما الشرع وهو حق ، والتصديق بهما واجب ، لأن فى العقل ممكن ، ومعناه الإعادة بعد الفناء ، وذلك مقدور الله تعالى كابتداء الإنشاء . قال تعالى ،"قل من يحي العظام وهى رميم" .. فاستدل بالابتداء على الإعادة ، وقال -ﷻ- ،"ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة" .. والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول (راجع قواعد العقائد لأبي حامد الغزالي صـ ٢٩٩ وما بعدها ، عالم الكتب ، لبنان ١٤١٥هـ ، الثانية ، تحقيق ، موسى محمد على .
(8) مفاتيح الغيب ، المجلد الثالث عشر ١٦٠/٢٦ بتصرف .
(9) راجع معاني القرآن للفراء ٤٠٠/٢ بتصرف ، المفردات للراغب صـ ٤٠٧ كتاب القاف ، مختار الصحاح للرازي صـ ٢٢٦ باب القاف .
(10) مفاتيح الغيب ، المجلد الثالث ١٦٠/٢٦ .
(11) سورة الإنشقاق ، الآية: ٧ .
(12) زاد المسير ١٠٨/٧ ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٤٠٤هـ ، الثالثة .

كتابنا لنرى ما فيه حسنات وسيئات قبل يوم القيامة والحساب والجزاء ، وهم لا يؤمنون ببعث ولا جزاء ، وإنما قالوا هذا استهزاء وعنادا ومكابرة"[١].

المعنى الثاني : من معاني القط : أن يكون بمعنى النصيب ، قال الزجاج :" القط : النصيب واشتقاقه من قططت أى قطعت وكذلك النصيب إنما هو القطعة من الشئ"[٢] .

وعلى هذا المعنى فللآية تفسيران :**أحدهما** : أن يكون المعنى: عجل لنا نصيبنا من الجنة ، **وثانيهما** : أن يكون المعنى: عجل لنا نصيبنا من العذاب ، أما الأول : فهم إنما استعجلوا نصيبهم من الجنة وذلك "لما سمعوا رسول الله -ﷺ- يذكر وعد الله تعالى المؤمنين بالجنة ، فقالوا على سبيل الهزأ :عجل لنا نصيبنا منها لننعم به فى الدنيا"[٣].

وأما الثاني : وهو أنهم استعجلوا نصيبهم من العذاب فتكون الآية "حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة ، فقالوا بطريق الاستهزاء والسخرية : ربنا عجل لنا قطنا ونصيبنا من العذاب الذي توعدتنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة فى قوله :"**وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق**"[٤] .. وتصدير دعائهم بالنداء المذكور[٥] للإمعان فى الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال"[٦].

يقول الأستاذ/ محمد محمود حجازي: "إنهم لما سمعوا أن الله منع عذاب الاستئصال[٧] عنهم فى الدنيا ؛ إكراما للنبي-ﷺ- "**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم**"[٨] وأخر عذابهم للآخرة ، قالوا : ربنا عجل لنا قطنا وحقنا فى العذاب قبل يوم الحساب"[٩].

وهذا المعنى هو الأقرب لسياق الآيات ؛ إذ أن الآيات التي سبقت هذه الآية كانت تدور حول مصير الأمم السابقة وما حل بهم من عقاب ، قال تعالى :" **كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد {} وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب {} إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب**"[١٠] ولأن الله قد أخر عذابهم إلى يوم القيامة إكراما لسيدنا محمد -ﷺ- وتشريفا له عن سائر الأنبياء ، ولحكمة أرادها الله-ﷻ- بإمهالهم ، فحينما أخبرهم النبي -ﷺ- بذلك قالوا مستهزئين وجاحدين لليوم الآخر: عجل لنا هذا العذاب الذي أخرته عنا ، وأيا كان

---

[١] أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير ٤٤٠/٤ .
[٢] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٢٣/٤ بتصرف.
[٣] راجع روح المعاني ١٧٣/٢٣ .
[٤] سورة ص ، الآية: ١٥ .
[٥] يريد قوله "ربنا" .
[٦] روح المعاني ١٧٣/٢٣ .
[٧] استأصل القوم ، قطع أصلهم (لسان العرب ٨٩/١ ، باب التاء مادة أصل) ، والمعنى ، إهلاكهم جميعا بحيث لا يبقى منهم أحد كما فعل بالأمم السابقة لتمردهم .
[٨] سورة الأنفال ، من الآية: ٣٣ .
[٩] التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي ٢٣٣/٣ بتصرف .
[١٠] سورة ص ، الآيات: ١٢ : ١٤ .

المعنى ،، فكل التأويلات المذكورة تدل على سخافتهم وحماقتهم ، واستهزائهم برسول الله -ﷺ- وهذا ما أفاده القاضي ابن عطية في محرره ، إذ يقول : "وعلى كل تأويل فكلامهم خرج على جهة الاستخفاف والهزأ ، ويدل على ذلك ما علم من كفرهم واستمر"[1].

وقولهم :"قبل يوم الحساب" ، إن كان يعطى إقرارا منهم بيوم الحساب إلا أنهم لم يكونوا ليقروا به ، بل كانوا دائما ما يستعجلونه استهزاء وإنكارا له ، ولقد حكى القرآن عنهم سؤالهم عن الساعة في أكثر من موضع ، قال تعالى :" **يسألونك عن الساعة أيان مرساها**"[2] "ولقد اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بهذا السؤال ، فروى عن قتادة قال: قالت قريش لمحمد ﷺ:إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة ، فقال الله "يسألونك عن الساعة كأنك حفي" ، وقال آخرون : بل عنى به قوما من اليهود ، فقد روى عن ابن عباس أن نفرا من اليهود[3] قالوا لرسول الله ﷺ : يا محمد ، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول ؟ .. فإنا نعلم متى هي ، فأنزل الله "يسألونك عن الساعة " إلى قوله "ولكن أكثرهم لا يعلمون"[4].

والقول الذي اختاره الإمام الطبري:"إن قوما سألوا رسول الله -ﷺ- عن الساعة فأنزل الله هذه الآية ، وجائز أن يكون من قريش ، وجائز أن يكون من اليهود ، ولا خبر بذلك عندنا يجوز قطع القول على أي ذلك كان"[5] وذهب الإمام ابن عاشور إلى أن" السائل هم كفار قريش ؛ وذلك لأنهم دائما كانوا يسألون عنها ويستعجلون وقوعها ، ولقد حكى القرآن عنهم مثل هذا السؤال في مواضع كثيرة من القرآن ، كقوله تعالى :"**ويسألونك عن الساعة أيان مرساها** "[6] . وقوله تعالى :"**عم يتساءلون {} عن النبإ العظيم {} الذي هم فيه مختلفون**"[7] .. يعني البعث والساعة ، وأما من قال أن السائلين هم اليهود وأنهم أرادوا امتحان رسول الله -ﷺ- فسألوه عن الساعة فهذا لا يكون سبب نزول الآية ؛ لأن الآية مكية[8]"[9].

ولا يمنع ما أفاده ابن عاشور من أن اليهود كانوا يسألون رسول الله عن وقت قيام الساعة حيث كانوا يمتحنون الرسول -ﷺ- ؛ لأنهم كانوا يعلمون من خلال كتابهم أن علم

---

(1) المحرر الوجيز لـ ابن عطية ٤٦٩/٤ .
(2) سورة الأعراف ، من الآية: ١٨٧ .
(3) منهم حمل بن أبي قشير ، وسمول بن زيد .
(4) راجع جامع البيان للطبري ١٣٧/٩ ، بتصرف يسير. ط دار الفكر ، بيروت ١٤٠٥هـ.
(5) جامع البيان ١٣٧/٩ وما بعدها .
(6) سورة النازعات ، الآية: ٤٢ .
(7) سورة النبأ ، الآيات: ١ : ٣ .
(8) المشهور في معنى المكي أنه هو ما نزل قبل هجرته -ﷺ- إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة ، وأما المدني فهو ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة . (راجع مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني صـ ١٣٧ دار الفكر ، لبنان ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ، الأولى .
(9) التحرير والتنوير ٢١٠/٩.

الساعة عند الله فيمتحنونه ليروا هل يوافقها وحي أم لا ، ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الأحزاب :" **يسألك الناس عن الساعة**"[١].

ولقد ذكر الإمام الألوسى عند تفسير هذه الآية ما نصه :"كان المشركون يسألونه -ﷺ- عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء ، والمنافقون تعنتا ، واليهود امتحانا ؛ لما أنهم يعلمون من التوراة أنها مما أخفاه الله تعالى ، فيسألونه -ﷺ- ليمتحنوه ؛ هل يوافقها وحي أم لا"[٢].

إذن قول ابن عاشور لا ينفى سؤال اليهود عن الساعة ، وإنما ينفى أن يكون سؤالهم هو سبب نزول الآية ، لأنها مكية ، وسؤال اليهود كان فى المدينة ، والقول ما قال ابن عاشور ، من أن المشركين هم الذين سألوا رسول الله -ﷺ-استعجالا واستهزاء وهذا دأبهم فنزلت الآية ردا عليهم وإفحاما لسؤالهم ، والساعة المسئول عنها استعجالا لها : هى القيامة ، "وهى من الأسماء الغالبة ، وإطلاقها عليها ؛ إما لوقوعها بغتة ؛ أو لسرعة ما فيها من الحساب ؛ أو لأنها ساعة عند الله تعالى مع طولها فى نفسها"[٣].

يقول الإمام الألوسى: "الساعة فى الأصل اسم لمقدار قليل من الزمان غير معين ، وتطلق فى عرف الشرع على يوم موت الخلق ، وعلى يوم قيام الناس لرب العالمين ، وفسروها بيوم القيامة ، ولعل المراد منه أحد هذين اليومين ، وإن كان المشهور منه اليوم الآخر ، والظاهر أن المسئول عنه اليوم الأول"[٤] ومقصود ذلك أن الساعة أصلها اسم لمقدار قليل من الزمان ، إلا أنها أطلقت على يوم موت الخلق ، ويوم قيام الناس لرب العالمين ، والمراد بها هنا يوم موت الخلق ، وهذا ما ذهب إليه الزجاج[٥] وعرفها الإمام ابن عاشور ، فقال :"الساعة معرفة باللام علم بالغلبة فى اصطلاح القرآن على وقت فناء العالم الدنيوي ، والدخول فى العالم الأخروي ، وتسمى بيوم البعث ويوم القيامة[٦].

وهم لم يسألوا عنها وعن أحوالها ، وإنما سألوا عن وقت قيامها استبعادا منهم ، واستعجالا لها ، وهذا ما عبر عنه بقوله "أيان مرساها" ، وأيان :"اسم مبنى لتضمنه حرف الاستفهام بمعنى (متى) وهو خبر (مرساها) ، والجملة فى موضع جر بدلا من الساعة تقديره يسألونك عن زمان حلول الساعة"(٧).

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية: ٦٣ .
(٢) روح المعاني للألوسى ٩٢/٢٢ .
(٣) إرشاد العقل السليم ٣٠٠/٣ .
(٤) روح المعاني ١٣١/٩ .
(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٩٣/٢.
(٦) التحرير والتنوير ٢١٠/٩.
(٧) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العبكرى صـ ٢٩٠ ، المكتبة العلمية ، باكستان ، تحقيق ، إبراهيم عطوة عوض .

قال الرازي[1]:"أيان بمعنى حين وهو سؤال عن زمان"[2] وأما "مرساها" فهي مفعل من أرسى وهو مصدر مثل المدخل والمخرج بمعنى الإدخال والإخراج أي متى أرساها"[3] وهي بمعنى الإثبات ، قال ابن منظور :"رسا الشئ يرسو رسوا ، وأرسى : ثبت ، وأرساه هو ، ورسا الجبل إذا ثبت أصله فى الأرض"[4] والمراد بها فى الآية "وقوعها" ، قاله الزجاج[5] ولقد ذكر الإمام الماوردى فى معناها" ثلاثة أقوال:

الأول : قيامها ، **الثاني** : منتهاها ، **الثالث** : ظهورها"[6] ولا مانع من إرادة كل هذه المعاني ؛ لأنها متقاربة ؛ فوقوعها دال على قيامها، وهو دال على ظهورها وبالتالي منتهاها .

وهكذا استعجل المشركون قيام الساعة ومرادهم بهذا الاستنكار والاستهزاء بمحمد -ﷺ- فيخاطبه مولاه -ﷻ- قائلا له : يسألك أهل مكة عن متى الساعة ومتى تحصل ، ومتى تقع ، ومتى تستقر فأخبرهم أن علم الساعة عند الله ، وإنها لا تأتى إلا فجأة ، وهذا من رحمتي عليهم ، ولكن هؤلاء المستهزئين لا يعقلون هذا ، فهم غافلون عما حولهم ، عميت أبصارهم عما يحيط بهم ، ومع ذلك يسألون عما هو بعيد عنهم ، فهذا كما قال صاحب الظلال :"كالذي لا يرى ما تحت قدميه ويريد أن يرى ما فى الأفق البعيد"[7].

فعجبا لمن يستعجل قيام الساعة !! وهو لا يعرف أهوالها ، إذ لو عرفها ما استعجلها ؛ فهي اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد[8] لذلك أشفق منها المؤمنون الموحدون خوفا ورهبة من هولها ، بينما استعجلها هؤلاء المكذبون المنكرون لها ، قال تعالى مخبرا عن ذلك :"**يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد**"[9] فهذا إخبار من الله -ﷻ- عن حال المشركين المنكرين لها وحال المؤمنين المقرين بها ؛ فالمشركون يستعجلونها استهزاء وإنكارا وجهلا بهولها ، والمؤمنون مشفقون منها خوفا ورهبة وإحساسا لديهم بالتقصير تجاه خالقهم.

---

(1) محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، صاحب مختار الصحاح ، من فقهاء الحنفية ، من آثاره شرح المقامات الحريرية وحدائق الحقائق ، توفى بعد ٦٦٦هـ ، ١٢٦٨م.(الأعلام للزركلى ٥٥/٦ ، التاسعة ١٩٩٠م).

(2) مختار الصحاح للرازي صـ ١٥ ، باب الهمزة .

(3) إملاء ما من به الرحمن ، صـ ٢٩٠ .

(4) لسان العرب ١٦٤٧/٣ باب الراء ، مادة رسا ، وينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٩٣/٢ .

(5) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٩٣/٢.

(6) النكت والعيون للماوردى ٢٨٤/٢ .

(7) فى ظلال القرآن لسيد قطب ١٤٠٩/٣.

(8) وذلك مصداقا لقوله تعالى ،"يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم {} يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد"(سورة الحج ، الآيتان: ١ ، ٢) .

(9) سورة الشورى ، الآية: ١٨ .

وعن علاقة هذه الآية بما قبلها يقول الإمام البقاعى:"لما قال تعالى "**لعل الساعة قريب**"[١] مشيرا بـ "لعل" إلى أن حال المستعجل بها حال المترجي لشئ محبوب وهو جهل منه عظيم ، شرع فى تفصيل حال الناس فى أمرها مشيرا إلى أنه ينبغى للعاقل الاستعداد لها من غير بحث عن قربها أو بعدها فإنه لابد من كونها"[٢] ، فهؤلاء المشركون إنما يستعجلونها استهزاء وظنا منهم أنها غير آتية ، فهم لا يؤمنون ببعث الله الموتى بعد فنائهم للحساب والجزاء ، وإنما كانوا يقولون : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، قال الإمام القرطبى – رحمه الله – :"وإنما استعجلها هؤلاء على طريق الاستهزاء ، وظنا منهم أيضا أنها غير آتية أو إيهاما أنها لا تكون"[٣].

هذا هو حال المشركين ، الاستعجال بقيام الساعة استهزاء وسخرية ، واستبعادا لوقوعها ، ولو تدبر هؤلاء مآلهم فيها لعلموا أنهم أولى الناس بالخوف منها ، بينما نجد فى المقابل أناسا مؤمنين موحدين موقنين بالساعة مشفقين منها خائفين من وقوعها ، قال تعالى :"والذين آمنوا مشفقون منها" وخوفهم منها إنما هو اعتناء بها وهذا ما وضحه الإمام الألوسى إذ يقول فى معنى هذه الآية :"أى خائفون منها مع اعتناء بها ، فإن الإشفاق عناية مختلطة بخوف ، فإذا عدى بـ "من" هنا فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدى بعلى فمعنى العناية أظهر ، وعنايتهم بها لتوقع الثواب"[٤] ، وخوفهم منها أيضا" لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة"[٥] و"أنهم مبعوثون ومحاسبون"[٦] "ولا يدرون مصيرهم فيها ، ولا يعلمون ما هم صائرون إليه من سعادة أو شقاء"[٧] ، قال الإمام البقاعى :"خائفون منها ؛ لأن الله هداهم بإيمانهم فصارت صدورهم معادن المعارف ، وقلوبهم منابع الأنوار ، فأيقنوا بما فيها من الأهوال فخافوا للطافتهم أن يكونوا مع صلاحهم من أهل النار"[٨].

ولا يظن البعض أن إشفاقهم من الساعة وخوفهم منها إنما هو كراهية للموت ؛ كلا .. فإذا ورد الموت لم يكرهوه وكانوا مستعدين له ، ولكن فى الوقت نفسه لا يتمنوه حذر الابتلاء ، يقول الإمام القشيري:"المؤمنون يؤمنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، ويكلون أمورهم إلى الله ، فلا يتمنون الموت حذر الابتلاء ولكن إذا ورد الموت لم يكرهوه وكانوا مستعدين له"[٩]

---

[١] سورة الشورى ، من الآية: ١٧ .
[٢] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٢٨٢/١٧ بتصرف ، ط الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
[٣] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الثامن١٢/١٦بتصرف ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان.
[٤] روح المعاني ٤١/٢٥ ، وينظر المفردات فى غريب القرآن صـ ٢٦٣ وما بعدها ، كتاب الشين.
[٥] مفاتيح الغيب ، المجلد الرابع عشر ١٣٧/٢٧ .
[٦] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٩٧/٤.
[٧] أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير لأبى بكر الجزائري ٦٠٥/٤.
[٨] نظم الدرر ٢٨٣/١٧ بتصرف.
[٩] لطائف الإشارات للقشيرى ٣٤٨/٣.

، وذلك ليقينهم التام أن قيام الساعة هو الحق الثابت الذى لا يعتريه ريب ولا شك ، قال تعالى:"ويعلمون انه الحق" أي" الأمر المتحقق الكائن لا محالة"[١]. ولأن الإيمان باليوم الآخر هو أساس الدين[٢] ، فمنكره جاحد وفى ضلال بعيد . قال -ﷻ-:"ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفي ضلال بعيد" .. أي يجادلون فى وقوعها ويشكون فى ذلك ، قال ابن منظور :" مارى فلان فلانا : استخرج ما عنده من الكلام والحجة مأخوذ من قولهم (مريت الناقة) إذا مسحت ضرعها لتدر ، وماريت الرجل أماريه مراء : إذا جادلته ، والمرية والمرية : هى الشك والجدل"[٣] ، وقال الإمام الألوسى : "أصل المماراة : من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب وإطلاقها على المجادلة ؛ لأن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه ، ويجوز من المرية أى التردد فى الأمر ، وهو أخص من الشك ، ومعنى المفاعلة غير مقصود . والمعنى : "إن الذين يترددون فى أمر الساعة ويشكون فيه"[٤] ويؤخذ من هذا أن المماراة إما أن تكون بمعنى المجادلة أو تكون من المرية بمعنى التردد فى الأمر ، وعلى الأول فالمفاعلة فيها مقصودة ، وعلى الثاني غير مقصودة ، ولا مانع من احتمال المعنيين ؛ وذلك لأن المشركين شكوا فى قيام الساعة أولا ، ثم جادلوا فى وقوعها ثانيا ، قال الزجاج :"تدخلهم المرية والشك فى الساعة فيمارون فيها ويجحدون كونها"[٥].

وإنما كان منكرو الساعة وجاحدوها فى ضلال بعيد ؛ لأنهم - " يجهلون عظمة الله ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وأنهم لا يبصرون فى أنفسهم ، فهم أنفسهم أدل الدلائل وأقوى الحجج على نفى ما ينكرونه من البعث ، فالله أحياهم أولا وأماتهم ثانيا ، ولا تزال القدرة صالحة لإحيائهم مرة ، وجمعهم مرة أخرى يوم القيامة"[٦] وهكذا استعجل قيام الساعة من لا يؤمن بها من الكفار ؛ لأنهم يظنون أنها أوهام لا حقائق لها ، أما المؤمنون فقد اعتقدوا بل أيقنوا بوجودها ، فتراهم مشفقين منها خائفين من مواقفها المشهودة ، وكيف لا يشفقون منها وهم يعلمون أنها الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ؛ لذلك كان شأن من شك فيها البعد عن الصواب والتخبط فى ظلمات الجهل والكفر - نعوذ بالله من هذا الجهل - يقول الشيخ/ سيد قطب: "الذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها ، فلا عجب يستعجلون بها - مستهزئين

---

(١) روح المعاني ٤١/٢٥ .

(٢) وذلك لحديث جبريل - عليه السلام- حينما سأل النبي ﷺ عن الإيمان ؟ .. فقال: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ... الحديث . (صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان أن الدليل على التبرى ممن لا يؤمنون بالقدر وإغلاظ القول فى حقه ٣٧/١ ، عن عمر بن الخطاب ، رقم الحديث (٨) وهو حديث طويل اقتصرت فيه على محل الشاهد).

(٣) راجع لسان العرب لابن منظور ٤١٨٩/٦ باب الميم، مادة مرا .

(٤) روح المعاني للألوسى ٤١/٢٥ بتصرف .

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٩٧/٤ .

(٦) العقائد الإسلامية ، سيد سابق صـ ٢٧٢.

؛ لأنهم محجوبون لا يدركون ، أما الذين آمنوا فهم مستيقنون بها ، ومن ثم يشفقون ويخافون وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هى حين تكون ، وأنها الحق ، أما الذين يمارون فى الساعة فقد أوغلوا فى الضلال ، وأبعدوا ، فعسير أن يعودوا بعد هذا الضلال البعيد"[1].

ونظير سؤالهم عن وقت قيام الساعة قوله تعالى :" **يسألون أيان يوم الدين** "[2] .. وقوله :"**يسأل أيان يوم القيامة** "[3] .. وقوله :" **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** " .. وهذا الأخير قد تكرر كثيرا فى القرآن الكريم ، وفى كل موضع يختلف فيه السياق والطلب ، وهذا يدل على براعة القرآن الكريم ، فهو لا يكرر أمرا ما إلا ووراء ذلك فائدة عظيمة ، وبيان ذلك:

ورد هذا الطلب فى سورة "يونس" عندما أخبر -ﷻ- أن المشركين يتمنون موت رسول الله -ﷺ-وأصحابه فأخبرهم الله أن موت رسولهم ، أو بقاءه حيا لا ينفعهم ولا يضرهم ، ولا يدفع عنهم عذابا ، وأن لكل أمة من الأمم رسولا ، فإذا جاء رسولهم قضى الله بينهم بالعدل - ولا يظلم ربك أحدا - عند ذلك قالوا مستهزئين : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ .. طالبين بذلك سرعة قضاء الله فيهم ، كما قضى بين الأمم السابقة ، قال تعالى :"**وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون {} ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون {} ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**"[4] قال صاحب الظلال :"كانوا يسألون فى تحد واستعجال طالبين وقوع ما يوعدهم به النبي -ﷺ- من قضاء الله فيهم كما قضى بين الأمم التى جاءتها رسلها فكذبت"[5] ونلاحظ من خلال جواب النبي -ﷺ- بأنه لا يملك لهم النفع ولا الضرر إلا بمشيئة خالقه -ﷻ- ، وأن لكل أمة وقت معين فإذا جاء هذا الوقت لا يؤخرون عنه ولا يتقدمون ، قال تعالى على لسان رسوله :" **قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** " .. ونلاحظ أن هؤلاء إنما يطلبون وقوع العذاب بهم ، لا تعيين وقت المجئ ، وفى هذا الشأن يقول الإمام أبو السعود فى تفسيره :"هذه الآية استعجال لما وعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاء به والإنكار حسبما يرشد إليه الجواب لا طلبا لتعيين وقت مجيئه على وجه الإلزام"[6].

كما ورد هذا الطلب كذلك فى سورة الأنبياء بعد بيان أن هؤلاء المشركين كلما رأوا رسول الله -ﷺ- استهزءوا به ولعنوه وسبوه هو وأصحابه ، فبين -ﷻ- أن هذه هى سنة

---

[1] فى ظلال القرآن لسيد قطب ٣١٥١/٥ بتصرف.
[2] سورة الذاريات ، الآية: ١٢ .
[3] سورة القيامة ، الآية: ٦ .
[4] سورة يونس ، الآيات: ٤٦ : ٤٨ .
[5] فى ظلال القرآن لسيد قطب ١٧٩٧/٣ .
[6] إرشاد العقل السليم ١٥١/٤ .

الكافرين مع رسلهم ، وأنهم قد اعتادوا على هذا التكذيب ، وأن العجلة من طبائعهم ، وأنهم كما استعجلوا الخير لأنفسهم ، لجهلهم أيضا استعجلوا الشر ومن ذلك طلبهم نزول العذاب بهم ، ولو علم هؤلاء ما سينالهم من العذاب ما استعجلوه ، قال تعالى :" **وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون {} خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون {} ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**"[1].

فلقد كانوا يستهزئون برسول الله -ﷺ- وأصحابه ويسومونهم سوء العذاب ، وكانوا كلما مروا برسول الله -ﷺ- قالوا فى سخرية واستهزاء : أهذا الذى يذكر آلهتكم ، ومن المؤكد عندما يجد هؤلاء المكذبون أنهم يستهزئون بمن يزعم أنه مرسل من عند الله ، دون رادع يردعهم ، فلابد أن يتمادوا فى غيهم وكفرهم طالبين عذاب الله عقابا لهم على سبهم لرسوله ، وهذا كله جهل منهم وسفه . فأخبر الله تعالى أن العجلة من طبع الإنسان وهى نقيصة عنده وأن الله منزه عن هذه النقائص ، وأنه لا يعجل بعجلة أحد ، وأنه سيريهم عقابه وعذابه ولكن فى الميعاد الذى حدده هو ، و"تلاحظ براعة القرآن وعظمته بقوله تعالى :"خلق الإنسان من عجل" .. فكأن الإنسان لما كثر من العجل جعل كأنه مخلوق منها كما يقال لمن يكثر اللعب أنت من لعب وفى هذا من المبالغة مالا يخفى ، والمقصود من الإنسان الجنس وهذا هو الظاهر"[2] قال الإمام أبو السعود :"جعل لفرط استعجاله وقلة صبره وكأنه مخلوق منها تنزيلا لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان إيذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه"[3] وقال الفراء : "خلق الإنسان من عجل" وعلى عجل كأنك قلت بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة"[4] وهذه المعاني على أن الإنسان هو جنس الإنسان دون تخصيص ، وهذا كما أشرنا هو الظاهر ، وأنه إنما وصف به لكثرة صدورها منه ، وأما من ذهب على أن المراد بالإنسان هو آدم - عليه السلام- وأن الله خلقه على عجلة ، أو أن المراد بالعجل الطين وأن الله خلقه منه ، أو أن المراد به النطفة ، أو أن المراد أن الله قال له كن فكان ، وغير ذلك من الأقوال ، وهى أقوال تبعد عن المعنى الأصلي للآية ، والأصح كما سبق أن المراد بالإنسان الجنس وأن خلقه من عجل مبالغة لكثرة صدورها منه"[5] والله تعالى أعلى وأعلم.

وقد يطرح سائل سؤالا ، وهو كيف ينهاهم الله عن العجلة مع أنه قد أخبر أن العجلة قد جبل عليها منذ خلقه ؟ .. فهل هذا تكليف بما لا يطاق ؟ ..والجواب :" ليس هذا من التكليف بما

---

(1) سورة الأنبياء ، الآيات: ٣٦ : ٣٨ .
(2) البحر المحيط ٣١٢/٦ بتصرف ، ينظر المحرر الوجيز ٨٢/٤ ، ومعانى القرآن وإعرابه للزجاج ٣٩٢/٣.
(3) إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٦٧/٥ ، وينظر روح المعاني ٤٨/١٧ .
(4) معاني القرآن للفراء ٢٠٣/٢ ، تحقيق ومراجعة ، محمد على النجار .
(5) راجع هذه المعاني فى البحر المحيط ٣١٢/٦ وما بعدها ، المحرر الوجيز ٨٢/٤ ، الجامع لأحكام القرآن ، المجلد السادس ١٩١/١١ .

لا يطاق ؛ لأن الله تعالى أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها ويرجع هذا النهى إلى الأمر بالصبر"[١] يقول محمد محمود حجازي:"حين ينهانا الله عن العجلة مع أنها غريزة ، وطبع فينا إنما يطالبنا بأن نحكم العقل فى غرائزنا ، ونجعل الدين يتسلط على أعمالنا الظاهرة والباطنة ، ولا شك أن هذا تسامى بالغريزة وإعلاء لها"[٢].

والمقصود من الآيات التى سيريهم الله إياها فى قوله :"سأريكم آياتى" .. قيل : "الهلاك المعجل فى الدنيا والعذاب المؤجل فى الآخرة ، أي يأتيكم فى وقته ، وقيل : أدلة التوحيد وصدق الرسول ، وقيل : آثار القرون الماضية ، والأول أليق ، أى سيأتي ما يسوؤكم إذا دمتم على كفركم كأنه يريد يوم بدر[٣] وغيره فى الدنيا وفى الآخرة"[٤].

وبعد أن بين المولى -ﷻ- أن العجلة من طبيعة البشر إلا أنه قد أعطانا من القوة والصبر ما يجعلنا نقاوم هذا الخلق ، كما بين أن عذاب هؤلاء سيأتيهم لا محالة ولكن فى وقته الذى قدره لهم فلا ينبغى العجلة ، بين مظهرا من مظاهر عجلتهم وهو قولهم "ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين" . فكأن هؤلاء المستهزئين قد اعتادوا تكذيب الرسل ، فهم يسخرون منهم حتى ولو كان فى طلبهم هذا شر سيقع بهم ، وفى هذا الشأن يذكر الإمام القشيري ما نصه :"اعتادوا تكذيب الأنبياء – عليهم السلام – فيما وعدوهم واستعجلوهم ، فاستعجلوا حصول ما توعدوهم به ، ولو علموا ما ينالهم لكان السكون منهم"[٥].

كما ورد هذا الطلب فى سورة النمل فى معرض الأمر بالسير والنظر فى مصير الأمم السابقة المكذبة لرسلهم ، قال تعالى :"**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين {} ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون {} ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**"[٦]. " طلبوا العذاب العاجل الموعود فكأنهم فهموا وعدهم بالعذاب من الأمر بالسير ، والنظر فى عاقبة أمثالهم المكذبين"[٧] قال الشيخ/ سيد قطب:"كانوا يقولون هذا كلما خوفوا بمصائر المجرمين قبلهم ، ومصارعهم التى يمرون عليها مصبحين وبالليل كقوم لوط ، وآثار ثمود فى الحجر ، وآثار عاد فى الأحقاف ، ومساكن سبأ بعد سيل العرم ، فكانوا يقولون مستهزئين متى هذا الوعد إن كنتم صادقين"[٨]. . فعجبا لهؤلاء ! .. يستعجلون ما حل بأمم

---

[١] روح المعاني ٤٩/١٧ .
[٢] التفسير الواضح ٥٣١/٢ وما بعدها .
[٣] حيث انهزم المشركون ، وقتل صناديد قريش وألقوا فى القليب وكان منهم من استعجل العذاب قائلين "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء" .
[٤] البحر المحيط ٣١٣/٦ .
[٥] لطائف الإشارات للقشيرى ٥٠٢/٢ .
[٦] سورة النمل ، الآيات: ٦٩ : ٧١ .
[٧] روح المعاني ١٦/٢٠ .
[٨] فى ظلال القرآن ٢٦٦٣/٥.

يعرفون قصصهم ويمرون عليهم صباحا ومساء ، فهلا يعتبرون ويأخذون منهم العبرة والعظة حتى لا يكون حالهم مثل حال أولئك ، ولكن هيهات هيهات !!! ولذا فلقد قال تعالى لرسوله – ﷺ – متعجبا من هؤلاء القوم باستعجالهم العذاب بدلا من طلب الرحمة ، وقد خلت من قبلهم سنن الله فى المكذبين :" **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات**"[١].

وفى تفسير السيئة قبل الحسنة ثلاثة تأويلات ذكرهم الإمام الماوردى فى كتابه النكت والعيون :**أولها** : بالعقوبة قبل العافية ، **وثانيها** : بالشر قبل الخير ، **وثالثها** : بالكفر قبل الإجابة ، ويحتمل **رابعا** : بالقتال قبل الاسترشاد"[٢].

وفسر الإمام الرازي السيئة بالعذاب فقال :" المراد بالسيئة هنا نزول العذاب عليهم كما قال تعالى فى قوله "**فأمطر علينا حجارة من السماء**"[٣] .. وفى قوله " **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا**" إلى قوله " **أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا**"[٤] .. وإنما قالوا ذلك طعنا منهم فيما ذكره الرسول –ﷺ– وكان يعدهم على الإيمان بالثواب فى الآخرة ، وبحصول النصر والظفر فى الدنيا ، فالقوم طلبوا منه نزول العذاب ولم يطلبوا منه حصول النصر والظفر ، وسمى العذاب سيئة ؛ لأنه يسوؤهم ويؤذيهم ، والحسنة الإمهال والتأخير"[٥] والقول : أنه لا مانع من أن يراد بالسيئة جميع ما سبق من العذاب ، والشر والكفر والقتال ، وكذلك الحسنة فهي أيضا عامة تشمل العافية والإمهال والإجابة والاسترشاد ، والمراد بكون السيئة قبل الحسنة : "سؤالهم قبل سؤالها أو أن سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدر لها"[٦] ثم قال تعالى :" **وقد خلت من قبلهم المثلات** " .." أى يستعجلونك بالسيئة مع علمهم بما حل بغيرهم من مكذبي الرسل فى الأمم السالفة ، وهذا يدل على سخف عقولهم إذ يستعجلون بالعذاب والحالة هذه ، فلو أنه لم يسبق تعذيب أمثالهم لكانوا ربما يكون لديهم عذر ولكنهم لا يعتبرون فيستهزئون"[٧] والمثلة :" بفتح الميم وضم الثاء هى العقوبة ، والجمع المثلات"[٨] قال الزجاج فى معانيه : "إنهم يستعجلون العذاب وقد تقدم من العذاب ما هو مثله وما فيه نكال لهم لو اتعظوا"[٩] والمراد بالمثلات هنا :"قيل : العقوبات المستأصلات كمثلات قطع الأنف والأذن ونحوهما.

---

[١] سورة الرعد ، من الآية : ٦.
[٢] النكت والعيون ٩٥/٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
[٣] سورة الأنفال ، من الآية: ٣٢ .
[٤] سورة الإسراء ، الآيات: ٩٠ : ٩٢ .
[٥] مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد العاشر ١٠/١٩ .
[٦] روح المعاني ١٠٦/١٣ .
[٧] البحر المحيط ٣٦٦/٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٢٩٦/٣ .
[٨] مختار الصحاح للرازي صـ ٢٥٦ ، باب الميم .
[٩] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٤٠/٣ .

وقيل : النقمات[١] وقيل : وقائع الله الفاضحة كمسخ القردة[٢] والخنازير[٣] وقيل : الأمثال[٤] المضروبة"[٥] "والجملة حالية لبيان ركاكة رأيهم فى الاستعجال بطريق الاستهزاء أى" يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم إياه ، والحال أنها قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم المكذبين والمستهزئين"[٦].

كما تكرر هذا الطلب فى معرض الحديث عن القيامة وأنه يوم الفصل الذي يفصل فيه الله -ﷻ- بين عباده فيما هم فيه مختلفون ، قال تعالى :" **إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**"[٧] .. فاستعجلوا هذا الفصل قائلين : متى هذا الفتح ؟ .. قال تعالى مخبرا عنهم :"ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين"[٨] وقد أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة قال : "قال أصحاب نبي الله -ﷺ- : إن لنا يوما أوشك أن نستريح فيه وننعم فيه ، فقال المشركون : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين؟"[٩].

ولقد اختلف المفسرون فى المراد بـ يوم الفتح ، فقيل :" الفتح هو القضاء ، وقيل : فتح مكة ، وقيل : يوم القيامة"[١٠] وروى عن ابن عباس أنه قال فى قوله "**ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين {} قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون**" ، قال :" يوم بدر فتح للنبى -ﷺ- (فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم) بعد الموت"[١١] والراجح والله أعلم : أن

---

[١] نقم عليه فهو ناقم أى عتب عليه .. وانتقم الله منه ، عاقبه (مختار الصحاح صـ ٢٨٢ ، باب النون).

[٢] كما مسخ أهل آيلة قردة ، وكان ذلك فى زمن داود ، عليه السلام، وسبب ذلك أنهم كانوا تأتيهم يوم السبت حيتان البحر كثيرة ، فإذا كان غير السبت لا يجئ إليهم فيها شئ ، وكانوا قد حرموا الصيد يوم السبت ، فاحتالوا فى ذلك فعملوا على جانب البحر حياضا كبيرة وأجروا فيها الماء فإذا كان آخر نهار يوم الجمعة يتحول الماء إلى الحياض فتدخلها الحيتان ولا تقدر على الخروج منها فيأخذونها يوم السبت فنهاهم بعض أهلها فلم ينتهوا ، فمسخهم الله قردة وبقوا ثلاثة أيام وهلكوا . (راجع الكامل فى التاريخ ١٦٩/١ ، ١٧٠ بتصرف ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٢١/٢ ، ١٢٢) . ولقد قال الله تعالى فى شأنهم "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين"(سورة البقرة ، الآية: ٦٥).

[٣] كما مسخ قوم عيسى-عليه السلام- حينما أنزل الله عليهم المائدة التى طلبوها بقولهم "هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء" ، فدعا عيسى فقال "اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا" .. فأنزل الله المائدة عليها خبز ولحم يأكلون منها ولا تنفذ ، فقال لهم ، إنها مقيمة ما لم تدخروا منها فمضى يومهم حتى ادخروا ، وقيل ، أقبلت الملائكة تحمل المائدة عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم .. ولما بلغ الطعام ركبهم قالوا نشهد أنك رسول الله ، ثم تفرقوا فتحدثوا بذلك فكذب به من لم يشهده وقالوا ، سحر أعينكم فافتتن بعضهم وكفر ، فمسخوا خنازير ليس فيهم امرأة ولا صبى فبقوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا(الكامل فى التاريخ ٢٤٢/١ ، ٢٤٣ بتصرف) .

[٤] قال ابن منظور ، كأن المثل مأخوذ من المثل لأنه إذا شنع فى عقوبته جعله مثلا وعلما . (لسان العرب لابن منظور ٤١٣٥/٦ ، باب الميم ، مادة مثل) .

[٥] راجع هذه المعاني فى البحر المحيط ٣٦٦/٥ ، وروح المعاني ١٠٦/١٣ ، والنكت والعيون ٩٥/٣ .

[٦] إرشاد العقل السليم ٧/٥ ، وروح المعاني ١٠٦/١٣ .

[٧] سورة السجدة ، الآية: ٢٥ .

[٨] سورة السجدة، الآية: ٢٨ .

[٩] جامع البيان للطبري ١١٦/٢١ ، وينظر لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى صـ ٣٤٤ .

[١٠] راجع هذه الأقوال فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد السابع ٧٤/١٤ بتصرف .

[١١] أخرجه الحاكم فى مستدركه كتاب التفسير ، باب تفسير سورة السجدة ٤١٤/٢ ، ٤١٥ ، وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

المراد بالفتح الحكم والقضاء سواء فى الدنيا بعذابهم يوم بدر أو فى الآخرة ، لذا قال تعالى عقب هذه الآية :"**قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون**" .. أى إذا جاء يوم بدر أو يوم القيامة لم ينفع الذين كفروا إيمانهم حيث قضى الله أمرا كان مفعولا .

ورد أيضا هذا الطلب فى سورة "سبأ" فى معرض الحديث عن مهمة رسول الله -ﷺ- وأنه أرسل رحمة للعالمين ، فقالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، فكأنهم جهلوا مهمة رسول الله -ﷺ- وأنه مبشر ومنذر ولا يعلم وقت هذا الموعد ، قال تعالى :"**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون {} ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**"[1] ، قال سيد قطب: "هذا السؤال يوحى بجهلهم لوظيفة الرسول -ﷺ- وعدم إدراكهم لحدود الرسالة ، والقرآن حريص على تجديد عقيدة التوحيد ، فما محمد إلا رسول محدد الوظيفة ، وهو قائم فى حدود وظيفته لا يتخطاها ، والله هو صاحب الأمر ، هو الذى أرسله ، وهو الذى حدد له عمله ، وليس من عمله أن يتولى - ولا حتى أن يعلم - تحقيق الوعد ، والوعيد ذلك موكول إلى ربه ، وهو يعرف حدوده ، فلا يسأل مجرد سؤال عن شئ لم يطلعه عليه ربه ، ولم يكل إليه أمره"[2].

ورد كذلك فى معرض الحديث عن الحشر والبعث كما فى سورة الملك ، قال تعالى:"**قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون {} ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**"[3].

قال الإمام الألوسى :" أى الحشر الموعود كما ينبئ عنه قوله تعالى "وإليه تحشرون"[4] ولا شك أن هؤلاء قوم يجهلون فما فائدة معرفة ميقات الحشر ، هل يعنى لهم شيئا ، فما الفرق لديهم بين أن يجئ غدا أو بعد غد أو بعد ملايين السنين . المهم أن يقروا أنهم محشورون وأنه آت لا محالة ، قال سيد قطب: "هو سؤال الشاك المتريب ، كما أنه سؤال المماحك المتعنت ، فإن معرفة هذا الموعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر ولا علاقة لها بحقيقته ، وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء ، ويستوي بالقياس لديهم أن يجيئ غدا أو أن يجئ بعد ملايين السنين ، فالمهم أنه آت وأنهم محشورون فيه ، وأنهم مجازون بما عملوا فى الحياة"[5] وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة "الإسراء" عندما أنذرهم النبي أيضا بالبعث فقالوا متى هو ؟ .. قال تعالى: "**قل كونوا حجارة أو حديدا {} أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا**"[6].

---

(1) سورة سبأ ، الآيات: ٢٨ ، ٢٩ .
(2) فى ظلال القرآن ٢٩٠٨/٥ .
(3) سورة الملك ، الآيات: ٢٤ ، ٢٥ .
(4) روح المعاني ٣٤/٢٩ .
(5) فى ظلال القرآن ٣٦٤٦/٦ .
(6) سورة الإسراء ، الآيات: ٥٠ ، ٥١ .

" فلقد نظر المشركون بعقلهم القاصر ، وقلبهم الأعمى إلى نظرية البعث وإعادة الحياة للحساب والثواب والعقاب فقالوا : أئذا كنا عظاما نخرة ورفاتا مفتتة نبعث ؟ .. ونكون خلقا جديدا له حس وحركة وفيه حياة وإدراك ؟ .. إن هذا لشئ عجيب !! .. فيرد الله عليهم : إن إعادة الحياة إلى الجسم أمر ممكن ، بل هو أهون على الله من خلقه أول مرة ، ولو فرضتم أيها المشركون أن بدن الميت قد صار أبعد شئ عن الحياة بأن صار حجرا أو حديدا أو خلقا آخر مما يكبر في صدوركم وعقولكم كالسماء والأرض فالله قادر على إحيائه وبعثه من جديد فسيقولون من يعيدنا ؟ .. قل لهم : الذى فطركم وخلقكم أول مرة قادر على إعادتكم وإحيائكم للبعث والجزاء ، فسينغضون إليك رءوسهم ويحركونها تعجبا ، ويقولون متى هو؟"[1] قال الزجاج :"فسيحركون رءوسهم تحريك من يبطل الشئ ويستبطئه ، يقال : أنغضت رأسي إذا حركته ، أنغضه إنغاضا ، ونغضت الشئ تنغض نغضا ، ونغض برأسه ينغض نغضا إذا حركه"[2] فهم يحركون رءوسهم استهزاء وإنكارا لهذا اليوم ، وقال ابن عطية :"يرفعون ويخفضون على جهة التكذيب"[3].

وبعد عرض المواطن التى تكرر فيها هذا الطلب من المشركين ، نستطيع أن نستنبط بعض اللطائف الدقيقة من هذا السؤال ، منها :

إنهم سموا ما وعدوا به من العذاب أو البعث بالوعد مع العلم أن الوعد لا يكون إلا فى خير ، يقول الإمام ابن عطية:"سموا ذلك وعدا من حيث قيدته قرائن الكلام أنه فى شر ، والوعد متى ورد مطلقا فهو خير ، فإذا قيدته بقرينة الشر استعمل فيه ، والوعيد دائما إنما هو الشر"[4] ، أى أن الوعد أصله فى خير ، فإذا ورد فى الشر فلابد من قرينة تدل على ذلك ، والقرينة هنا هى إنذار النبي -ﷺ- لهم بالعذاب ، ويحتمل أنهم قصدوا الوعد الذى هو فى خير حيث" أنهم لم يعتبروا كونه شرا لهم ، ولذا عبروا بالوعد دون الوعيد أو أنهم قالوا ذلك لأنهم زعموا أن لهم الحسنى عند الله إن تحقق البعث"[5] قال تعالى على لسانهم :"**ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى**"[6].

---

(1) التفسير الواضح ٣٢٨/٢ وما بعدها بتصرف .
(2) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٤٤/٣ ، ٢٤٥ .
(3) المحرر الوجيز ٤٦٢/٣ .
(4) المحرر الوجيز ٤٥٦/٤ .
(5) روح المعاني ٤٤/٢٣ بتصرف .
(6) سورة فصلت ، من الآية: ٥٠ .

من اللطائف المستنبطة أيضا :"أن الخطاب فى كل الآيات لرسول الله -ﷺ- والمؤمنين ؛ لما أنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة على البعث والآمرة به ؛ وكانوا يتوعدونهم بالعذاب على لسان الشرع"[١].

ومنها أيضا : أن الله -ﷻ- عبر بلفظ المستقبل "ويقولون" "وهذا يحتمل ما يوجد من الكفار من هذا القول فى المستقبل ، ويحتمل الماضى ، والتقدير : فكانوا يقولون متى هذا الوعد"[٢] ، وقد يكون السر فى تعبير الله -ﷻ- بلفظ المستقبل إخبارا به عن أمر مضى ، إنما هو استحضار للصورة الماضية لدى السامع ، وأكثر آيات القرآن خاصة فى القصص إنما هى إخبار عن أمر مضى بلفظ الاستقبال .

مما سبق من الآيات تبين "أن هؤلاء المشركين كانوا يستعجلون الرسول -ﷺ- أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب ازدادوا استعجالا وازدادوا استهزاء، وزادوا استهتارا وحسبوا أن محمدا -ﷺ- يخوفهم بما لا وجود له ولا حقيقة ؛ ليؤمنوا له ويستسلموا ، ولم يدركوا حكمة الله فى إمهالهم ورحمته فى إنظارهم ، ولم يحاولوا تدبر آياته فى الكون ، وآياته فى القرآن ، هذه الآيات التى تخاطب العقول والقلوب ، خير من خطابها بالعذاب!! أو التي تليق بالإنسان الذى أكرمه الله بالعقل والشعور وحرية الإرادة والتفكير"[٣] ، لذا خاطب الله المشركين المستعجلين للعذاب مخبرا إياهم أن عذابه واقع لا محالة ، وأنه قد قدر عنده فى الأزل إلى الأبد ، وإن تأخر عنهم فلحكمة لا يعلمها إلا هو ، فهو آت لا محالة ، فلا داعي للاستعجال ؛ لأنه -ﷻ- لا يعجل قضاءه وحكمه ، قال تعالى:"**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**"[٤] وقد روى عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية :" أنه لما نزل قوله تعالى:"**اقتربت الساعة وانشق القمر**"[٥] .. قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما رأوا أنه لا ينزل شئ ، قالوا : ما نرى شيئا ! .. فأنزل الله تعالى قوله:"**اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون**"[٦] .. فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة فلما امتدت الأيام ، قالوا : يا محمد ، ما نرى شيئا مما تخوفنا به ، فأنزل الله تعالى "أتى أمر الله" .. فوثب النبي -ﷺ- ورفع الناس رءوسهم فنزل "فلا تستعجلوه" فاطمأنوا"[٧] قال الإمام أبو السعود : "أمر الله الساعة أو ما يعمها وغيرها

---

[١] روح المعاني ٤٤/٢٣ بتصرف .
[٢] مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر ٦٥/٣ .
[٣] فى ظلال القرآن لسيد قطب ٢١٥٩/٤ ، بتصرف .
[٤] سورة النحل ، الآية: ١ .
[٥] سورة القمر ، الآية: ١ .
[٦] سورة الأنبياء ، الآية: ١.
[٧] أسباب النزول للواحدى صـ١٥٩ ، ١٦٠ .

من العذاب الموعود للكفرة"[١] وفى البحر "أمر الله هو يوم القيامة على قول الجمهور ، وعن ابن عباس : المراد بالأمر نصر رسول الله -ﷺ- وظهوره على الكفار ، وقيل : الأمر عقاب الله لمن أقام على الشرك وتكذيب الرسول ، وقيل : الأمر بعض أشراط الساعة"[٢] وقال الضحاك[٣]: "الأمر هنا مصدر أمر، والمراد به فرائضه وأحكامه"[٤] وقيل "إن الأمر ها هنا العذاب بالسيف وهذا جواب النضر بن الحارث حين قال :" **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء**" .. يستعجل العذاب فأنزل الله تعالى هذه الآية[٥].

والقول : إن أمر الله لا مانع من أن يراد به الساعة أو يراد به العذاب الذى وعد الله به المشركين أو يراد به نصر الله لرسوله ، فكل هذه المعانى داخلة تحت عموم أمر الله ؛ لأن كل شئ بأمر الله وقضائه وكلها أمور مستعجلة ، ولكن المستبعد هو أن يراد بأمر الله فرائضه وأحكامه كما قال الضحاك فلقد ذكر أن أمر الله المراد به فرائضه وأحكامه ، قال أبو حيان معقبا على هذا الرأى :"هذا فيه بعد ؛ لأنه لم ينقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائضه من قبل أن تفرض عليهم"[٦].

وهنا سؤال : إذا كان أمر الله لم يقع بعد ، فلماذا عبر الله بصيغة الماضي دون المضارع؟ قيل :"إن "أتى" باق على معناه من المعنى ، والمعنى أتى أمر الله وعدا فلا تستعجلوه وقوعا ، وقيل : أتى أمر الله أتت مبادؤه وأماراته ، وقيل : عبر بالماضي دون المضارع لقرب وقوعه وتحققه وذلك وعيد للكفار"[٧] ويفهم من هذا أن (أتى) قد يراد بها الماضي فعلا ويكون أمر الله قد أتى وعدا وأنه قد تحقق فى الأزل وفى قضائه ، لكنه لم يدخل فى حيز التنفيذ ، أو أن يكون المقصود أن أمارات الساعة أو العذاب قد وقعت وأتت بالفعل ، وما نراه فى زماننا الآن من أمارات للساعة يدل على قرب الوقوع ، أو يكون الماضي المذكور فى الآية مقصود منه المضارع وإنما عبر بالماضي لتحقق الوقوع ، قال القرطبى :"إخبار الله تعالى فى الماضي والمستقبل سواء لأنه آت لا محالة"[٨] وعبر الله فى هذه الآية عن العذاب أو الساعة بأمر الله وذلك "للتفخيم والتهويل ، وللإيذان بأن تحققه فى نفسه وإتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه

---

[١] إرشاد العقل السليم ٩٤/٥ .

[٢] ينظر هذه الأقوال فى البحر المحيط ٤٧٢/٥ بتصرف ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الخامس ٤٤/١٠ ، المحرر الوجيز ٣٧٧/٤ .

[٣] أبو القاسم الضحاك بن مزاحم البلخى المفسر ، كان يؤدب الأطفال ويعلمهم ، وثقه أحمد وأبو زرعة ، قيل مات سنة خمس ومائه وقيل ست (ميزان الاعتدال ٣٢٥/٤).

[٤] تفسير الضحاك ٥١٣/١ ، دار السلام ، الأولى ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م ، تحقيق د/ محمد شكرى أحمد.

[٥] أسباب النزول للواحدى صـ ١٦٠ .

[٦] البحر المحيط ٤٧٢/٥ .

[٧] البحر المحيط ٤٧٢/٥ .

[٨] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الخامس ٤٤/١٠ .

الغالب"[1] قال ابن عاشور :"وفى التعبير عنه بأمر الله إيهام يفيد تهويله وعظمته لإضافته لمن لا يعظم عليه شيئ"[2] "والخطاب فى هذه الآية الكريمة : إنما هو للكفرة خاصة ، واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم ، ولا يجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين سواء أريد بأمر الله الساعة أو العذاب....

أما الأول : وهو استعجال الساعة ؛ فلأنه لا يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهى عنه .

وأما الثاني : وهو العذاب الموعود للكفرة ؛ فلأن استعجالهم له بطريق الحقيقة ، واستعجال الكفار بطريق الاستهزاء فلا ينتظمها صيغة واحدة ، والالتجاء إلى إرادة معنى مجازى يعمهما معا من غير أن يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف،، لا يليق بشأن التنزيل الجليل"[3].

والقول الأولى بالصواب : هو أن "أمر الله إذا كان المراد به الساعة فالخطاب للكافرين دون المؤمنين ؛ لأنهم لا يستعجلون قضاء الله وقدره ؛ فهم موحدون ومؤمنون بربهم وأنه عالم الغيب ، وأنه جعل لكل أجل كتاب ، وأن علم الساعة من الغيبيات التى لا يعلمها إلا هو[4] يقول الإمام القشيري:"أصحاب التوحيد .. إذا أملوا شيئا أو أخبروا بحصول شئ فلا استعجال لهم ، بل شأنهم التأني والثبات والسكون ، وإذا بدا من التقدير حكم فلا استعجال لهم لما يرد عليهم ، بل يتقبلون مفاجأة التقدير بوجه ضاحك ، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الرد والقبول والمنع والفتوح بوصف الرضا ، ويحمدون الحق سبحانه وتعالى على ذلك"[5] كما أن الله أخبر فى كتابه العزيز أن المؤمن لا يستعجل الساعة وهذا كما سبق بيانه فالمؤمنون مشفقون منها ، قال تعالى :" **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها**"[6] أما إذا كان المراد بأمر الله عذاب الله الواقع على الكفرة الناتج منه نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين فلا مانع " من توجيه الخطاب إليهم ؛ لأنهم كانوا يضمرون فى نفوسهم استبطاءه ويحبون تعجيله للكافرين"[7] و"

---

(1) إرشاد العقل السليم ٩٤/٥ .
(2) التحرير والتنوير ٩٧/١٤ .
(3) روح المعاني ٩٠،٩١/١٤ .
(4) ولا يتنافى ذلك مع ما جاء فى السنة النبوية من أن المسلمين كانوا يسألون رسول الله -ﷺ- عنها ، فقد كانوا يسألونه إشفاقا منها وخوفا من هولها . فقد روى عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رجلا سأل النبي -ﷺ- عن الساعة فقال : متى الساعة ؟ .. قال : فماذا أعددت لها ؟ .. قال: لا شئ إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال: أنت مع من أحببت ..... الحديث . (أخرجه البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب عمر بن الخطاب أبى حفص القرشي العدوى -رضي الله عنه-٣/١١٣٤ ، رقم الحديث(٣٦٨٨) كما اخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب ، باب المرء مع من أحب ٤/٢٠٣٢ ، رقم الحديث(٢٦٣٩).
(5) لطائف الإشارات للقشيرى ٢/٢٨٤ ، ٢٨٥ .
(6) سورة الشورى ، من الآية: ١٨ .
(7) التحرير والتنوير ٩٧/١٤ بتصرف .

الضمير فى قوله "لا تستعجلوه" يعود إلى الأمر لأنه هو المتحدث عنه وهذا هو الظاهر وقيل :" يعود على لفظ "الله" أى فلا تستعجلوا الله بالعذاب أو إتيان يوم القيامة"[١].

والراجح هو الأول وأن المشركين كانوا يستعجلونه فأخبرهم الله أنه آت لا محالة " فإن سنة الله تمضى وفق مشيئته لا يقدمها استعجال ولا يؤخرها رجاء ، فأمر الله قد قضى وانتهى وأما وقوعه ونفاذه فسيكون فى حينه المقدر لا يستقدم ساعة ولا يتأخر"[٢] فعذاب الله واقع ولن يخلف الله وعده "**ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده**"[٣] ولولا أن الله قد حدد لهذا الوقت ميعادا لحل بهم ، قال -ﷻ- :" **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى**"[٤] وقال :" **يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**"[٥] وهو إذا وقع فليس له دافع ، قال تعالى :"**سأل سائل بعذاب واقع {} للكافرين ليس له دافع**"[٦].

" فالعذاب واقع فعلا ؛ لأنه كائن فى تقدير الله من جهة ، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى ، ولا يمكن لأحد دفعه ولا منعه ، والسؤال عنه واستعجاله وهو- واقع ليس له دافع - يبدو تعاسة من السائل المستعجل فردا كان أو مجموعة"[٧] والمعنى :" دعا داع به فالسؤال بمعنى الدعاء ؛ ولذا عدى بـ "الباء" وتعديته بها فى قوله تعالى "**يدعون فيها بكل فاكهة**"[٨] .. والمراد استدعاء العذاب وطلبه ، وليس من التضمين فى شئ ، وقيل : الفعل مضمن معنى الاهتمام والاعتناء أو هو مجاز عن ذلك ، فلذا عدى بـ "الباء" ، وقيل : إن الباء زائدة[٩] ، وقيل : إنها بمعنى " عن " كما فى قوله " **فاسأل به خبيرا**"[١٠]"[١١].

ويستخلص مما سبق : أن السؤال المذكور فى الآية له ثلاث معان :(الدعاء ، الاستعجال) وعلى هذين المعنيين عدى الفعل بـ "الباء" ، وأمثلة ذلك فى القران كثيرة منها قوله تعالى:"**يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها**"[١٢] "**يدعون فيها بكل فاكهة**"[١٣] .

---

(١) البحر المحيط ٤٧٢/٥ بتصرف ، وينظر روح المعاني ٩٠/١٤ .
(٢) فى ظلال القرآن ٢١٥٩/٤ .
(٣) سورة الحج ، من الآية: ٤٧ .
(٤) سورة العنكبوت ، من الآية: ٥٣ .
(٥) سورة العنكبوت ، الآية: ٥٤ .
(٦) سورة المعارج ، الآيتان: ١ ، ٢ .
(٧) فى ظلال القرآن ٣٦٩٥/٦ بتصرف .
(٨) سورة الدخان ، من الآية: ٥٥ .
(٩) ولا أقول أبدا بالزيادة فى القرآن ، فحاشا لكلام الله أن يكون فيه لفظ زائد.
(١٠) سورة الفرقان ، من الآية: ٥٩ .
(١١) روح المعاني ٩٤/٢٩ ، مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر ١٠٧/٣٠، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢١٩/٥.
(١٢) سورة الشورى ، من الآية: ١٨ .
(١٣) سورة الدخان ، من الآية: ٥٥ .

أما المعنى الثالث : (الاستفهام) عن شئ وعليه تكون "الباء" بمعنى " عن " ، والمعنى أن المشركين قد استفهموا من رسول الله -ﷺ- عن العذاب متى يقع ؟ ولمن يكون ؟ ومثال ذلك قوله تعالى "فاسأل به خبيرا" أى عنه خبيرا ، يقول ابن عاشور:"من بلاغة القرآن تعدية سأل بـ "الباء" ؛ ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام والدعاء والاستعجال"[1] وعلى هذا الاختلاف فى معنى (سأل سائل) ، إذ أن لها معنيين: إما أن تكون بمعنى طلب العذاب أو بمعنى استفهم مستفهم - اختلف فى تفسير قوله تعالى (للكافرين) ، قال الإمام الرازي :"فيه وجهان : إذا فسرنا قوله "سأل" بمعنى "طلب العذاب" ، كان المعنى أنه طلب طالب عذابا وهو واقع لا محالة سواء طلب أو لم يطلب وذلك لأن العذاب نازل بالكافرين فى الآخرة واقع بهم لا يدفعه عنهم أحد ، وقد وقع بالنضر ، لأنه قتل يوم أحد وهو المراد من قوله "ليس له دافع" ، وأما إذا فسرنا بالوجه الثاني وهو أنهم سألوا الرسول -ﷺ- أن هذا العذاب بمن ينزل ؟ .. فأجاب الله تعالى عنه بأنه واقع بالكافرين ، والقول الأول هو السديد"[2] وهكذا استعجل هؤلاء الحمقى عذاب الله فى الدنيا والآخرة جاهلين حكمة الله -ﷻ- فى إمهالهم وتأخر العذاب عنهم فكانوا كلما تأخر عنهم العذاب فترة من الزمان يقولون مستهزئين مستعجلين ما يصرفه - قال تعالى:"**ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه**"[3] قال سيد قطب :"كان المشركون لجهلهم بسنن الله فى الرسالات والمعجزات والعذاب ، يتساءلون إذا ما أخر عنهم أمة من السنوات أو الأيام ما يحبسه ، وما يؤخره فلا يدركون حكمة الله ولا رحمته ، وهو يوم يأتيهم لا يصرف عنهم بل يحيط بهم جزاء لاستهزائهم الذي يدل عليه سؤالهم واستهتارهم"[4] وهكذا جهل المشركون حقيقة تأخر العذاب عنهم ، العذاب الذي يوم يأتيهم لا مناص منه لهم ولا نجاة ، فعجبا لهؤلاء ! .. إذا تأخر عنهم العذاب استعجلوه ، وإذا نزل لا يتوبون ولا يستغفرون ، يذكر الإمام القشيري فى هذا الشأن ما نصه :"إن أمهلنا ، وأخرنا عليهم العذاب لا يرعووا ، بل يستعجلون العقوبة ، ولئن عجلنا لهم العقوبة لا يتوبوا ولا يستغفروا .. استولى عليهم الجهل فى الحالين ، عميت بصائرهم عن شهود التقدير والإيمان بالغيب فى النوعين ، ويوم يأتيهم العذاب فلا مناص ولا منجاة ولا مراح لهم منه"[5] ولكن هؤلاء كذبوا فى هذا الاستعجال فكانوا كلما نزل عليهم أدنى ضر لم يصبروا ، وتضرعوا إلى الله لإزالته وهو حديثنا فى المبحث التالي من هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

---

[1] التحرير والتنوير ٢٩/١٥٥ .
[2] مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس عشر ٣٠/١٠٨ .
[3] سورة هود ، من الآية: ٨ .
[4] فى ظلال القرآن ٤/١٨٥٩ بتصرف .
[5] لطائف الإشارات ٢/١٢٥ .

ثانيا :-استعجال زوال الضر والفرح والفخر عند زواله:

بعد أن بين -ﷻ- من خلال ما سبق من الآيات ، أن الكافرين استعجلوا عذاب الله وقضاءه ، وأن هذا العذاب واقع بهم لا محالة ، بين الله -ﷻ- أنهم كاذبون فى هذا الاستعجال ، وأنهم إذا مسهم أدنى شئ يضرهم لم يصبروا عليه واستعجلوا زواله ، بل وتضرعوا لله تعالى ؛ لكي يكشف عنهم هذا الضر ، قال تعالى:"**وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قآئما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون**"[1] فهذه الآية توضح لنا مظهرا من مظاهر عجلة هذا الكافر وضجره وقلقه ؛ وأنه إذا مسه الشدة والألم من مرض وفقر أو أي شئ يسوؤه ، يلجأ إلى الله ويدعوه بإلحاح ؛ لكي يكشف عنه هذا الضر ، بل ويدعوه في جميع أحواله ، سواء أكان مضطجعا أو قاعدا أو قائما ، ونراه على النقيض من ذلك إذا كشف الله عنه شدته ، وفرج له كربته ، أعرض ونسى حاله عند الضر . فعجبا لهؤلاء ! .. يرغبون فى إنهاء حياتهم بإنزال العذاب عليهم ، ثم يدعون ويهرعون إلى الله – وهم قد كفروا به – ليكشف عنهم أدنى ضر مسهم ، فهذا تناقض فى حياتهم ، يستعجلون الشر وهم مشفقون من مس الضر ، ثم إذا كشف عنهم عادوا لما كانوا عليه من التمرد والطغيان .

والإخبار عن حال الكافر إنما ورد بعد الحديث عن رحمة الله بعباده وأنه لو عجل لهم الشر الذي يستعجلونه لقضى إليهم أجلهم ولأنهى حياتهم ، قال تعالى :"**ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون**"[2] يذكرالإمام الرازي في تفسيره علاقة هذه الآية بالآية التي نحن بصددها فيقول :"في كيفية النظم وجهان :

الأول : أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه لو نزل العذاب على العبد في الدنيا لهلك ولقضي عليه ، بين فى هذه الآية ما يدل على غاية ضعفه ونهاية عجزه ؛ ليكون ذلك مؤكدا لما ذكره من أنه لو أنزل عليه العذاب لمات ، **الثاني** : أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستعجلون فى نزول العذاب ثم بين فى هذه الآية أنهم كاذبون فى ذلك الطلب والاستعجال ؛ لأنه لو نزل بالإنسان أدنى شئ يكرهه ويؤذيه ، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه وفى دفعه ، وذلك يدل على أنه ليس صادقا في هذا الطلب"[3] .

ويقول الإمام البقاعى في هذا الشأن ما نصه :"هذه الآية في بيان ضعف الإنسان وسوء عبوديته ، والتي قبلها فى بيان قدرة الله وحسن ربوبيته"[4] "فالآية صورة مبدعة لنموذج بشرى

---

[1] سورة يونس ، الآية: ١٢ .
[2] سورة يونس ، الآية: ١١ .
[3] مفاتيح الغيب ، المجلد التاسع ٤١/١٧ .
[4] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٨٤/٩ .

مكرور .. وأن الإنسان ليظل مدفوعا مع تيار الحياة ، يخطئ ويذنب ، ويطغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية وليس – إلا من عصم الله ورحم – من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفا ، وأن هناك عجزا ، وساعات الرخاء تنسى ، والإحساس بالغنى يطغى .. ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرخاء ، ضيق بالشدة ، مستعجل الرخاء ، فإذا استجيب للدعاء ، وكشف الضر انطلق لا يعقب ، ولا يفكر ولا يتدبر ، انطلق إلى ما كان فيه من قبل اندفاع واستهتار"[1]ولقد اختلف في المراد بالإنسان المذكور ، هل هو جنس الإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا ، أم هو خاص بالكافر فقط ؟ فيه ثلاثة أقوال :" الأول : الجنس ، الثاني : الكافر ، الثالث : شخص معين"[2]واختار الإمام الرازي نزولها في الكافر فيقول موضحا هذا :"الحق أن نقول: اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام حكمه أنه إذا حصل هناك معهود سابق الصرف إليه ، وإن لم يحصل هناك موعود سابق وجب حمله على الاستغراق ، صونا له عن الإجمال والتعطيل ، ولفظ الإنسان هاهنا لائق بالكافر ؛ لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة"[3] وهذا صواب ، فالآية إنما نزلت في شأن الكافر؛ وذلك لأن ذكر الله في الرخاء ونسيانه في الشدة من حال الكافر ، ولا يليق هذا بالمسلم ، ولكن لا يمنع اختصاص الآية بالكافر ، دخول العاص من المؤمنين إذا كان هذا حاله في عموم الآية ، وهذا ما أفاده الإمام ابن عطية في محرره إذ يقول :" قوله " مر " يقتضي نزولها في الكفار ، ثم هي بعد ، تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أو عاص"[4].

ثم بين الله –ﷻ– أن هذا الكافر لا يفتر عن الدعاء بل يدعوه في جميع الأحوال ، فقال مخبرا عن حاله بعد مس الضر :"دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما" .." أي في جميع الأحوال مما ذكر ومما لم يذكر ، وتخصيص المعدودات بالذكر ؛ لعدم خلو الإنسان عنها عادة ، أو دعانا في جميع أحوال مرضه على أنه المراد بالضر خاصة ، مضجعا عاجزا عن القعود ، وقاعدا غير قادر على النهوض ، وقائما لا يستطيع الحراك"[5].

ويستنبط من هذا أن قوله "دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما" .. إما أن تكون هذه الأحوال أحوالا للدعاء ، وهو أن الإنسان قد يدعو الله وهو مضجع على جنبه ، وقد يدعوه وهو قاعد ، وقد يدعوه وهو قائم ، فلا يخلو دعاء الإنسان من هذه الأحوال ، ويكون المعنى كما قال الزجاج:"وإذا مس الإنسان الضر من حال من الأحوال فجائز أن يكون دعانا لجنبه أو دعانا وهو

---

[1] في ظلال القرآن ١٧٦٩/٣ .
[2] راجع روح المعاني ٨٠/١١ .
[3] مفاتيح الغيب ، المجلد التاسع ٤٢/١٧ .
[4] المحرر الوجيز ١٠٩/٣ .
[5] إرشاد العقل السليم ١٢٦/٤ .

سطح ، أو دعانا قائما"[1] وإما أن تكون الأحوال ، أحوالا لمرض الإنسان ويكون مضجعا غير قادر على القعود ، وقاعدا غير قادر على القيام ، وقائما غير قادر على الحراك ؛ ويكون معنى الآية كما قال الزجاج أيضا :"وإذا مس الإنسان الضر لجنبه أو مسه قاعدا أو مسه قائما دعانا"[2] واختار الإمام الرازي أن تكون هذه الأحوال أحوال الدعاء فيقول :"والأول أصح ؛ لأن ذكر الدعاء أقرب إلى هذه الأحوال من ذكر الضر ؛ ولأن القول بأن هذه الأحوال أحوال للدعاء تقضى مبالغة الإنسان في الدعاء ثم إذا ترك الدعاء بالكلية وأعرض عنه كان ذلك أعجب"[3] والقول الأولى بالقبول هو ما قاله الرازي . وهو أن الكافر يلح فى الدعاء لكشف الضر عنه ، فإذا اضطجع على جنبه دعاه ، وإذا قعد دعاه ، وإذا قام دعاه ،لا يفتر ولا يمل حتى يكشف عنه وهذا مصداقا لقوله تعالى "**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض**" أى ذو دعاء كثير[4] فإذا كشف عنه أعرض عن الدعاء فالعجب من هذا ! .. وهو ما يشار إليه بقوله "مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه" .. أي "مضى واستمر على ما كان عليه قبل ، ونسى حالة الجهد والبلاء ، أو مر عن موقف الدعاء والابتهال ونأى[5]بجانبه"[6].

هكذا يتضح لنا كذب هؤلاء الحمقى المستعجلين للعذاب ، فإذا بهم يهرعون إلى الله بالدعاء والابتهال والتضرع ليكشفه عنهم إذا أصابهم ، فإذا كشف عنهم ولوا مدبرين كأن لم يمسسهم ضر ، هذا هو حال الكافر العجول القاصر ، كثير الضجر والغضب عند إصابته بالضر ، سريع الفخر والبطر والتباهي بالنعمة عند الإنعام عليه بها ، غير متدبر أن إصابته بالضر خير له إذا صبر عليها ، والإنعام عليه بالنعم خير له أيضا إذا شكر الله عليها . ولقد بين المولى -ﷻ- حاله في الحالتين :

الحالة الأولى : بينها بقوله "**ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور**"[7] .. فهذا الكافر قد أعطاه الله نعمة من صحة ، ورزق ، وأمن ، وولد ، ورحمة من الله عليه ، ثم إذا سلب تلك النعمة منه ، وأبدله بها نقمة ، بدلا من أن يصبر على تحملها ، ييأس من رحمة ربه ، ويكفر نعم الله السالفة عليه ، قال الإمام أبو السعود فى معنى "أذقنا الإنسان منا رحمة" :"أعطيناه نعمة من صحة ، وأمن ، وجدة ، وغيرها ، وأوصلناها إليه بحيث يجد لذتها"[8] قال الراغب :"اختير من القرآن لفظ الذوق في العذاب ؛ لأن ذلك وإن كان في التعارف

---

[1] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٩/٣ .
[2] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٩/٣ .
[3] مفاتيح الغيب ، المجلد التاسع ٤٢/١٧ .
[4] معاني القرآن للفراء ٢٠/٣ .
[5] نأى عن الشئ (نأيا) من باب نفع وبعد (ونأيته عنه) أبعدته عنه (المصباح المنير /كتاب النون ٦٣٢/٢) .
[6] روح المعاني ٨٠/١١ ، وينظر إرشاد العقل السليم ١٢٦/٤ ، ومفاتيح الغيب /المجلد التاسع ٤٣/١٧ .
[7] سورة هود ، الآية: ٩ .
[8] إرشاد العقل السليم ١٨٩/٤ ، وينظر روح المعاني ١٥/١٢ ، والبحر المحيط ٢٠٦/٥ .

للقليل ، فهو مستصلح للكثير ، فخصه بالذكر ليعم الأمرين"[١] "ولفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم وكأن المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان ، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع فى اليأس والقنوط والكفران ، والدنيا نفسها قليلة ، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل ، والإذاقة فى ذلك المقدار خير قليل ، ثم إنه فى سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات المرسومين ، فهذه الإذاقة قليل من قليل ، فإن الإنسان لا طاقة له بتحملها ولا صبر له على الإتيان بالطريق الحسن منها"[٢].

ويستنبط من هذا : أن الدنيا سريعة الزوال والانقضاء وأنها تشبه فى زوالها بأحلام النائمين ولذلك عبر بالإذاقة لسرعة زوالها ، وبالرغم من قلة نعيم الدنيا وخسته يغتر بها الكفرة ، ويحبونها حبا جما كأنه لا حياة بعدها ، ولذلك عندما ينزع الله عنهم هذه النعمة ، ويجعلها نقمة يصبح الكافر يائسا من رحمة الله ، كافرا لنعمه السالفة عليه من سمع وبصر وإدراك وغير ذلك ، وهذا ما عبر عنه المولى بقوله "ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور" .. ونزعناها أى "سلبناها إياه"[٣] قال ابن منظور :" نزع الشئ نزعه نزعا فهو منزوع ، ونزيع وانتزعه فانتزع : اقتلعه فاقتلع"[٤] وقال الراغب :" نزع الشئ جذبه من مقره ، كنزع القوس عن كبده "[٥] "ومنه" صلة النزع والتعبير به للإشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليه"[٦] ولأنه ذاق لذتها ، ومتعلقا بها ، وشديدا فى الحرص عليها .. ييأس ، ويكفر عندما تنزع منه ، قال تعالى :"إنه ليؤوس كفور" .." وهما صفتا مبالغة ، والمعنى : أنه شديد اليأس كثيره ، ييأس أن يعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة ، ويقطع رجاءه من فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ، "كفور أى كثير الكفران لما سلف الله عليه من نعمه"[٧] قال ابن عطية :"كفور هاهنا من كفر النعمة ، والمعنى : أنه ييأس ويحرج ، ويتسخط ، ولو نظر إلى نعمة الله الباقية عليه فى عقله وحواسه وغير ذلك ، ولم يكفرها لم يكن ذلك"[٨] وإنما" أخر الوصف بالكفور عن الوصف باليأس.. لرعاية الفواصل ؛ على أن اليأس من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا"[٩] ونظير هذا قوله تعالى:"**وإن مسه الشر فيؤوس قنوط**"[١٠] "يؤوس من روح الله قنوط من رحمته ، يؤوس من إجابة الدعاء قنوط بسوء الظن به ، يؤوس ييأس من زوال ما به من المكروه ، قنوط يظن أنه يدوم ، وكل هذه المعاني

---

[١] المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى صـ ١٨٢ كتاب الذال .
[٢] مفاتيح الغيب ، المجلد التاسع ١٥٣/١٧ .
[٣] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الخامس ٩/٩ .
[٤] لسان العرب لابن منظور ٤٣٩٥/٦ ، باب النون .
[٥] المفردات فى غريب القرآن (٤٨٧) كتاب النون .
[٦] روح المعاني ١٥/١٢ .
[٧] البحر المحيط ٢٠٦/٥ بتصرف .
[٨] المحرر الوجيز ١٥٣/٣ .
[٩] روح المعاني ١٥/١٢ بتصرف .
[١٠] سورة فصلت ، من الآية: ٤٩ .

متقاربة"[1] قال أبو حيان :"اليأس من صفة القلب وهو أن يقطع رجاءه من الخير ، والقنوط أن يظهر عليه آثار اليأس ، فيتضاءل وينكسر ، وبدأ بصيغة القلب ؛ لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الانكسار"[2] وهكذا نجد هذا الكافر "عندما يعطيه الله نعمة من صحة ورزق وأمن وولد بار ، رحمة منه ثم يسلبه تلك النعمة ، ويبدلها بها نقمة ، من مرض أو فقر أو خوف أو موت أو كارثة ، أضحى شديد اليأس من رحمة ربه ، كثير الكفور والجحود للماضي ولما عليه من نعم أخرى ، فهو قانط بالنسبة للمستقبل جاحد لماض الحال كأن لم ير خيرا ، ولما عليه الآن من النعم ، وذلك لعدم التزامه بفريضة الصبر والشكر"[3].

الحالة الثانية : سرعة الفخر والفرح ، والبطر والتكبر على الله عند الإنعام بالنعم . وإليها يشار بقوله " **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور**"[4] قال الإمام الرازي –رحمه الله –:"اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية ، بل هي أبدا في التغير والزوال ، والتحول والانتقال ، إلا أن الضابط فيه ، أنه إما أن يتحول من النعمة إلى المحنة ، ومن اللذات إلى الآفات وإما أن يكون بالعكس من ذلك ، وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب ، ومن المحرمات إلى الطيبات ، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة"[5] و"النعماء" إنعام يظهر أثره على صاحبه ، و"الضراء" مضرة كذلك "[6].

قال ابن فارس[7] : "النعمة : المنة وكذلك النعماء ، والنعمة : المال ، يقال : هو واسع النعمة ، والنعمة : التنعم"[8] وأما الضر : فإن كل ما كان من سوء حال ، أو فقر ، أو شدة في بدن فهو ضر ، وما كان ضد النفع فهو ضر ، يقال : ضره يضره ضرا ، و ضره به وأضره إضرارا ، وأضر به (ضارة مضارة ضرارا)[9] قال القاضي ابن عطية :"النعماء تشمل الصحة والمال ونحو ذلك ، والضراء من الضر وهو أيضا شامل ، وقد يكثر استعمال الضراء فيما يخص البدن"[10] وفي" التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن على ما قيل بلذتهما ،

---

[1] ينظر لهذه المعاني في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الثامن ٢٤٣/١٥ بتصرف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
[2] البحر المحيط ٥٠٤/٧ وينظر روح المعاني ٦/٢٥ .
[3] التفسير المنير ٢٦/١١ بتصرف .
[4] سورة هود ، الآية: ١٠ .
[5] مفاتيح الغيب المجلد التاسع ١٥٣/١٧ وما بعدها بتصرف .
[6] غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٢٤/٦ .
[7] العلامة أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي ، اللغوي صاحب المجمل نزيل همذان ، روى عن أبي الحسن القطان وطائفة ، ومات بالري سنة ٣٩٥هـ ، له من المصنفات كثيرة وجليلة ، منها (إضافة إلى المجمل ، المقاييس والتفسير ، فقه اللغة ، متخير الألفاظ) . انظر العبر في خبر من غبر ٦٠/٣ ، البلغة صـ ٦١ .
[8] مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، اللغوي ، باب النون والعين ومايثلثهما ٨٧٤/٣ ، دراسة وتحقيق ، زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
[9] شرح القاموس المسمى بـ تاج العروس من جواهر القاموس لـ محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الزبيدي ، فصل الضاد ، من باب الراء ٣٤٨/٣ ، دار الفكر.
[10] المحرر الوجيز ١٥٣/٣ .

وكونهما مما يرغب فيه ، وعن ملابسة الضر بالمس المشعر بكونها فى أدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها من اللطف ما لا يخفى ، ولعله يقوى عظم شأن الرحمة ، وذكر البعض أن لفظ الإذاقة والمس بناء على أن الذوق ما يختبر به الطعوم ، والمس – أول الوصول تنبيها على أن ما يجد الإنسان فى الدنيا من المنح والمحن نموذج لما يجده فى الآخرة ، وأنه يقع فى الكفران والبطر بأدنى شئ"[١] "وفى إسناد الإذاقة إلى الله دون المس ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه إنما يريد بعباده اليسر دون العسر ، وإنما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كأنما يلاصق البشرة من غير تأثر ، وأما نزع الرحمة فإنما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية إلى ذلك وهى كفرانهم بها"[٢]وقال الأمام الألوسى–رحمه الله– :"فيه إشعار بأن إذاقة النعمة مقصودة بالذات دون مس الضر بل هو مقصود بالعرض"[٣] .

ويستنبط من هذا أن الله– ﷻ– لم يرد لعباده الضر ، وإنما أراد بهم النفع ، وأن إذاقة النعمة هى الأصل ، ومس الضر إنما هو بسبب عارض ، من كفر تلك النعمة ، وهذا يعطينا يقينا وعلما ، بأن الإنسان هو الظالم لنفسه ؛ لأنه هو المتسبب لإصابته بالضر ، ومع ذلك عندما يكشف الله عنه هذا الضر ، ويبدل له النقمة بنعمة ، كصحة بعد مرض ، وغنى بعد فقر ، تراه يسرع فى الفخر والفرح والتباهي على الله–ﷻ– قال تعالى مخبرا عنه بعد زوال الضر :"ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور" .

"والسيئات هى كل ما يسوء فى الدنيا"[٤] ، ويسبب الغم والحزن فى نفس المبتلى بها ، والمعنى :" ذهبت المصائب التي تسوؤني ولن يعتريني بعد مثلها"[٥] فإن قيل ما وجه عيب الإنسان فى قوله "ذهب السيئات عنى" ، فالجواب : أن الله عابه على هذا القول ؛ "لأنه لم يعترف بنعمة الله ، ولم يحمده على ما صرف عنه"[٦]. " كما أن هذا القول يقتضى بطرا وجهلا أن ذلك بإنعام من الله ، واعتقادا أن ذلك اتفاق أو بسعد ..من الاعتقادات الفاسدة"[٧] . كما أنه يتعالى ويتكبر على الله –ﷻ– "إنه لفرح فخور" و"الفرح" :" لذة فى القلب لنيل المشتهى"[٨] قال ابن عطية – رحمه الله–:"الفرح انهماك النفس ، ولا يأتي فى القرآن ممدوحا إلا إذا قيد بأنه فى خير"[٩] .وأما

---

[١] روح المعاني ١٥/١٢ .
[٢] ارشاد العقل السليم ١٩٠/٤ .
[٣] روح المعاني ١٥/١٢ .
[٤] المحرر الوجيز لابن عطية ١٥٣/٣ .
[٥] روح المعاني للألوسى ١٥/١٢ .
[٦] زاد المسير لابن الجو زى ٨١/٤ نقلا عن ابن الإنبارى .
[٧] المحرر الوجيز ١٥٣/٣ .
[٨] التعريفات للجرجاني صـ ٢١٣ ، باب الفاء.
[٩] المحرر الوجيز ١٥٤/٣ .

"الفخر" : فهو "التطاول على الناس بتعديد المناقب"[1] والمعنى :" أنه بطر وأشر بالنعم مغتر بها ، فخور على الناس بما أوتى من النعم ، مشغول بذلك عن القيام بحقها"[2].

فهذا الكافر غاية سعادته هو الفوز بالسعادات الدنيوية ، فإذا حصل عليها وظفر بها فرح ، وتكبر ؛ لأنه وصل إلى غايته المنشودة ، وفى هذا الشأن يقول الإمام الرازي ما نصه :"أما قوة الفرح ؛ فلأن منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادة الدنيوية ، وهو منكر العبادات الأخروية الروحانية فإذا وجد الدنيا فكأنه فاز بغاية السعادات فلا جرم يعظم فرحه بها ، وأما كونه فخورا ؛ فلأنه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لا جرم يفتخر بها ، فحاصل الكلام ؛ أنه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين ، وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين"[3].

فهذه الآيات السابقة توضح لنا" صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذي يعيش في لحظته الحاضرة ، ويطغى عليه ما يلابسه ، فلا يتذكر ما مضى ، ولا يفكر فيما يلي ، فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه مع أنها كانت هبة من الله له ، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء ، لا يحتمل فى الشدة ، ولا يصبر ويؤمل فى رحمة الله ، ويرجوا فرحه ، ولا يقتصر فى فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حسابا"[4].

ونظير ما سبق من الآيات ، آيات عدة تبين لنا جهل هذا الكافر الذين يدعو ويستعجل الشر، فإذا مسه هلع إلى ربه لنجاته منه ، ثم إذا نجاه منه عاد لما كان عليه ومن ذلك قوله :"**وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون**[5]**{} ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون**"[6].. وقوله :"**وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا**"[7].. وقوله :"**وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار**"[8].. وقوله:" **إن الإنسان خلق هلوعا**[9]**{} إذا مسه الشر جزوعا**[10]**{} وإذا مسه الخير منوعا**[1][2]".

---

[1] التعريفات للجرجاني صـ ٢١٢ ، باب الفاء .
[2] إرشاد العقل السليم لأبى السعود ١٩٠/٤ .
[3] مفاتيح الغيب ، المجلد التاسع ، ١٥٣،١٥٤/١٧
[4] فى ظلال القرآن لسيد قطب ١٨٦٠/٤ ، بتصرف يسير .
[5] جأر يجأر جأرا وجؤار ، رفع صوته مع تضرع واستغاثة . (لسان العرب ٥٢٨/١ ، باب الجيم .
[6] سورة النحل ، الآيات: ٥٣ ، ٥٤ .
[7] سورة الإسراء ، الأية: ٦٧ .
[8] سورة الزمر ، من الآية: ٨ .
[9] الهلع ، الحرص ، وقيل الجزع وقلة الصبر ، وقيل ، هو أسوأ الجزع وأفحشه ، هلع يهلع هلعا وهلوعا فهو هلع وهلوع ، والهلع ، الحزن ، والهلع ، الحزين ، وشح هالع ، محزن (لسان العرب ٤٦٨٥/٦) .
[10] جزوعا ، الجزوع ضد الصبور على الشر ، والجزع نقيض الصبر ، جزع ، بالكسر يجزع جزعا ، فهو جازع وجزع وجزوع . (لسان العرب ٦١٦/١ ، باب الجيم).

ثالثا : استعجال النصر:

وهذا الاستعجال إنما هو مظهر آخر من مظاهر استعجالهم للعذاب ، لكنه كان فى ظنهم نصرا ، فلقد كانوا يستعجلون النصر على المؤمنين ظنا منهم أنهم على حق ، وأن دينهم هو دين الله ، وأنهم هم الأفضل والأعلى والأهدى عند الله من المؤمنين ، وهذا ما حدث فى غزوة بدر ، فلقد تعلقوا بأستار الكعبة وطلبوا من الله أن ينصر أفضل الدينين وأهدى الفريقين ، وهم موقنون أنهم هم الأفضل ؛ فخاطبهم الله -ﷻ- خطاب تهكم وسخرية قائلا :"**إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح**"[٣] والمستفتح هو أبو جهل بن هشام- لعنه الله - فلقد روى الحاكم عن عبد الله بن ثعلبه بن صغير[٤]قال : كان المستفتح أبا جهل ، فإنه قال حين التقى القوم "اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة" ، وكان ذلك استفتاحا فأنزل الله "إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح"[٥].

فهذه الرواية توضح لنا أن المستفتح والطالب للنصر هو أبو جهل - لعنه الله - ولكن كما هي عادة القرآن الكريم مخاطبة الجميع ؛ لأنهم راضون بالطلب مقرون به موافقون عليه . فيخاطبهم الله موبخا إياهم قائلا لهم : إن تستفتحوا وتستنصروا لأهدى الفريقين وأعلاهم ، وتطلبوا قضاء الله وحكمه وتستعجلوه ، فإن الله سيفصل بينكم ويقضى قضاءه ، وقد فصل بينكم فنصر المؤمنين ؛ لأنهم هم الأفضل عنده ، ووليتم أنتم الأدبار ؛ لأنكم الأضل عنده ، وبهذا يصبح النصر للأعلى والأهدى ، والبلاء والذلة للأدنى والأضل ، قال الإمام أبو السعود - رحمه الله - فى معنى الآية "فقد جاءكم الفتح" : حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى ، فالتهكم فى المجيئ ، أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر ، فالتهكم فى نفس الفتح حيث وضع موضع ما يقابله"[٦].

---

(١) منوعا ، المنع أن تحول بين الرجل وبين الشئ الذى يريده ، وخلاف الإعطاء ، ويقال: هو تحجير الشئ ، منعه يمنعه منعا ، ومنعه فامتنع منه وتمنع ، ورجل منوع ومناع ، ضنين ممسك(لسان العرب ٤٢٧٦/٦ ، باب الميم).

(٢) سورة المعارج ،الآيات: ١٩ : ٢١ .

(٣) سورة الأنفال ، من الآية: ١٩ .

(٤) عبد الله بن ثعلبه بن صغير بمهملتين مصغرا ، العدوى رأى النبي ﷺ وحفظ عنه ، له صحبة وذكره ابن حبان فى الصحابة ، مسح النبي وجهه ورأسه عام الفتح ودعا له ، ويقال: إنه ولد قبل الهجرة ويقال بعدها . حدث عن أبيه وسعد بن أبى وقاص ، وآخرين وعنه الزهري وعبد الله بن مسلم وآخرون ، مات سنة ٨٧ أو ٨٩ ، وله ثلاث وثمانون وقيل تسعون ، وقيل غير ذلك(راجع ترجمته فى الإصابة ٣١/٤ ، والتحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة لشمس الدين السرخسى ٢٤/٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٣م ، الطبعة الأولى).

(٥) أخرجه الحاكم فى مستدركه ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنفال ٣٢٨/٢ ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . كما ذكره الواحدى فى أسباب النزول صـ ١٣٤ ، والسيوطى فى لباب النقول فى أسباب النزول صـ ٢٠٦ .

(٦) إرشاد العقل السليم لأبى السعود ١٤/٤ ، ويراجع روح المعاني للألوسى ١٨٧/٩ .

ويستنبط من كلام الإمام أبي السعود ؛ أن التهكم إنما هو فى قوله "جاءكم" ؛ لأن المجئ يقتضى حصول النصر لهم ، أو قد يكون التهكم في أنه وضع الفتح والنصر موضع الهزيمة والقهر على سبيل السخرية ؛ لأن المقصود هو الهزيمة دون النصر ، يقول الإمام ابن عاشور:"إنما كان تهكما لأن فى معنى "جاءكم الفتح" استعارة المجيء للحصول عندهم تشبيها بمجيء المنجد ، لأن جعل الفتح جائيا يقتضى أن النصر كان فى جانبهم ، ولمنفعتهم ، والواقع يخالف ذلك ، فعلم أن الخبر مستعمل فى التهكم بقرينة مخالفته للواقع بمسمع المخاطبين ومرآهم"[١] و"الاستفتاح بمعنى الاستنصار"[٢] قال الإمام القرطبى :"الاستفتاح طلب النصر ، أي قد جاءكم الفتح . ولكنه كان للمسلمين عليكم ، أى فقد جاءكم ما بان به الأمر وانكشف لكم الحق"[٣] ويجوز أن يكون معناه :"إن تستحكموا فقد جاءكم الحكم وكلا الوجهين جيد . قاله الزجاج"[٤] ويستخلص من هذا أن الاستفتاح له معنيان :الأول : طلب النصر ، والثاني : طلب قضاء الله وحكمه ، وكلا المعنيين مراد ؛ وذلك لأن طلب النصر فيه فصل بين المؤمنين والكافرين بنصر وعزة المؤمنين ، وهزيمة وذلة الكافرين ، وكذلك طلب القضاء يتضمن المعنى نفسه.

هكذا طلب المشركون من الله هزيمة أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ، واستعجلوا ذلك ، فدارت عليهم الدائرة ، فانهزموا ، فهلا علموا من هو أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ؟!! .. ونظير ذلك قوله -ﷺ- " **واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد**"[٥] فهؤلاء طلبوا النصر على رسلهم ظنا منهم أنهم على حق والرسل على باطل ؛ لكنهم خابوا وخسروا ، وفى مختار الصحاح :" خاب يخيب خيبة إذا لم ينل ما طلب"[٦] وهؤلاء لم ينالوا ما طلبوه بل لقد أصبح وبالا عليهم ، ولقد ذكر الإمام الماوردى فى قوله "خاب" وجهين :"أحدهما : خسر عمله ، والثاني : بطل أمله"[٧].

ولا مانع من إرادة الوجهين ؛ لأن هؤلاء بحلول العذاب بهم قد خسروا أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا من صلة الرحم وإغاثة الملهوف وغير ذلك ، قال تعالى :" **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا**"[٨] وكذلك بهزيمتهم فى الحروب ضد المسلمين يبطل أملهم حينما ظنوا أنهم هم المنصورون ، وأن رسلهم هم المهزومون ، وأصل هذه الآية استفتحوا

---

[١] التحرير والتنوير ٢٥٨/٩ .
[٢] مختار الصحاح صـ ٢٠٥ ، باب الفاء .
[٣] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الرابع ٢٤٥/٧ .
[٤] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٠٨/٢ .
[٥] سورة إبراهيم ، الآية: ١٥ .
[٦] مختار الصحاح صـ ٨١ ، باب الفاء .
[٧] النكت والعيون للما وردى ١٢٧/٣ .
[٨] سورة الفرقان ، الآية: ٢٣ .

وخابوا ، إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمر "تنصيصا على الكفرة بأن سبب خيبتهم عن السعادة الحقيقية تجبرهم وعنادهم"[١].

والجبار : كما قال الزجاج: "الذي لا يرى لأحد عليه حق " . يقال : جبار بين الجبرية"[٢] . وقيل :" الجبار هو المتكبر على طاعة الله وعبادته"[٣] ولا مانع من إرادة كل هذه المعاني ؛ لأن التجبر خلق ذميم يشمل كل معاني التكبر والجبروت ، أما "العنيد" :" فهو الذي يعدل عن القصد"[٤] وقيل : "المعاند للحق المباهي بما عنده ، وقيل : "اشتقاق ذلك من العند وهو الناحية وعليه فالعنيد مجانب الحق"[٥].

من خلال معرفة معني الجبار و العنيد يمكن القول " إن كونه جبارا متكبرا إشارة إلي الخلق النفساني ، وكونه عنيدا إشارة إلي الأثر الصادر عن ذلك الخلق وهو كونه مجانبا عن الحق منحرفا عنه ، ولا شك أن الإنسان الذي يكون خلقه هو التجبر والتكبر ويكون فعله هو العنود والانحراف عن الحق والصدق كان خائبا عن كل الخيرات ، خاسرا عن جميع أقسام السعادات"[٦].

رابعا : استعجال الآيات:

ومن مظاهر استعجال هؤلاء الكفرة للعذاب أيضا طلبهم الآيات والمعجزات الحسية – الدالة على نبوته –ﷺ– دون التبصر إلى العواقب إذا تحققت هذه المطالب وكذبوا بها ، ولقد قص القرآن الكريم فى أكثر من موضع مقترحات المشركين واستعجالهم لها ، وأكثر آيات القرآن شمولا ووضوحا قوله–ﷻ– فى سورة الإسراء على لسانهم :"**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا {} أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا {} أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا {} أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا**"[٧] .

وسبب نزول هذه الآيات سبق الإشارة إليها عند الحديث عن استعجال هؤلاء الكفرة للعذاب وطلبهم إسقاط كسف من السماء ، ولقد تضمنت هذه الآيات عدة اقتراحات:

---

[١] غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٢٢/٦ .
[٢] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٥٦/٣ .
[٣] مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد العاشر ٨٠/١٩ ، وينظر روح المعاني ٢٠١/١٣ .
[٤] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٥٦/٣ .
[٥] تنظر هذه المعاني فى روح المعاني ٢٠١/١٣ بتصرف ، النكت والعيون ١٢٧/٣ .
[٦] مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد العاشر ٨١/١٩ بتصرف يسير ، وينظر روح المعاني ٢٠١/١٣ ، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٢٢/٦ ، والتحرير والتنوير ٢١٠/١٣ .
[٧] سورة الإسراء ، الآيات: ٩٠ : ٩٣ .

الأول و الثاني: أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا ؛ لأنها كانت أرضا جدبة[١]قليلة الماء ، والينبوع : "اسم للعين الكثيرة النبع التي لا ينضب[٢] ماؤها"[٣] "من نبع الماء إذا خرج"[٤] وسبب طلبهم هذا؛ لكي يسهل عليهم الزراعة والحراثة لأنفسهم . ثم قالوا له : "أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا" .. فكأن الأول لحظ أنفسهم ، وهذا الأخير لحظ نفسه -ﷺ- ... يقول الإمام الرازي – رحمه الله – :"التقدير كأنهم قالوا : هب أنك لا تفجر هذه الأنهار لأجلنا ففجرها لأجلك"[٥] ومعنى الاقتراحين كما جاء فى التفسير : "لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض عيونا تفيض بالماء فإننا في صحراء مجدبة ، أو تكون لك أنت – إن لم تأت بعيون لنا – جنة من نخيل وأعناب وغيرها ، فتجرى فيها الأنهار بقوة ؛ حتى يتم زرعها وتؤتى ثمارها كاملة"[٦].

الثالث : وهو ما يشار إليه بقوله تعالى "أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا" .. وسبق شرح هذا الاقتراح عند الحديث عن استعجال العذاب.

الرابع : إذا لم يستطع الإتيان بما سبق فليأت بالله والملائكة قبيلا ، والقبيل له عدة معان :أولها : كل قبيلة على حدتها ، قال ابن عاشور :"القبيل : الجماعة من جنس واحد .. أى تأتى بفريق من جنس الملائكة"[٧] والثاني:" مقابلة ، نعاينهم ونراهم نظير قوله تعالى:**"لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا"**[٨] والثالث : كفيلا ، قال الزجاج :"يقال قبلت ربه أقبل قبالة ، كقولك كفلت به أكفل كفالة ، وكذلك قول الناس ، قد تقبل فلان بهذا أى تكفل به"[٩] وهذا ما اختاره الفراء[١٠] والقول الأولى بالصواب أن كل هذه المعاني مرادة ؛ لأن الكفار كانوا دائما يطلبون نزول الملائكة إما لمشاهدتهم ، أو ليشهدوا ويقروا بنبوة سيدنا محمد ﷺ.

ونظير ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام " **وقالوا لولا أنزل عليه ملك**"[١١].. أى" لولا أنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا إنه نبي"[١٢] و"لولا" بمعنى التحضيض[١٣] والمقصود به هنا"

---

[١] الجدب ، ضد الخصب . (مختار الصحاح صـ ٤٠ ، باب الجيم) .
[٢] نضب الماء ، غاد وسفل(المغرب فى ترتيب المعرب لأبى الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن على بن المطرز ٣٠٧/٢ ، مكتبة أسامة بن زيد ، حلب ١٩٧٩م ، ط الأولى ، تحقيق ، محمود فاخورى ، عبد الحميد مختار) .
[٣] التحرير والتنوير ٢٠٨/١٥ .
[٤] مختار الصحاح صـ ٢٦٨ ، باب النون .
[٥] مفاتيح الغيب ، المجلد الحادي عشر ٤٨/٢١ .
[٦] التفسير الواضح ٣٩٥/٢ .
[٧] التحرير والتنوير ٢١٠/١٥ بتصرف .
[٨] سورة الفرقان ، من الآية: ٢١ .
[٩] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٥٩/٣ ، ٢٦٠ ، وينظر المصباح المنير ٤٨٩/٢ ، كتاب القاف .
[١٠] معاني القرآن للفراء ١٣١/٢ .
[١١] سورة الأنعام ، من الآية: ٨ .
[١٢] إرشاد العقل السليم ١١٢/٣ .
[٥] حروف المعاني لأبى القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي صـ ٤ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٤م ، ط الأولى ، تحقيق ، على توفيق الحمد .

التوبيخ على عدم الإتيان بملك شاهد معه حتى تنتهي الشبهة بزعمهم"[1] ونظير ذلك أيضا قوله تعالى:"**لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين**"[2]، وقوله:"**لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا**"[3] .

الخامس : أن يكون له بيت من زخرف أى ذهب ، وهذا الاقتراح إنما طلبوه استهزاء برسول الله -ﷺ- وسخرية منه ، فهو اليتيم الفقير ولا يملك أن يحقق لهم مطلبهم هذا ، وأصل الزخرف كما قال الزجاج : الزينة ، ويدل على ذلك قوله -ﷻ- " **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها**"[4].. أى" أخذت كامل زينتها ، وزخرفت الشئ إذا أكملت زينته ، ولا شئ فى تزيين بيت وتحسينه وزخرفته كالذهب"[5] لذلك شاع إطلاق الزينة على الذهب إذ أن التزين به غاية فى البراعة والجمال ، وكما قال الإمام الألوسى :"الزينة به أرغب وأعجب"[6] ونظير هذا الاقتراح قوله تعالى فى سورة الفرقان على لسانهم: "**أو يلقى إليه كنز**"[7].

السادس : أن يصعد إلى السماء ، ولا يكتفى بصعوده بل يأتيهم بكتاب من عند ربه يقرؤه ؛ يشهد أنه رسول من عند الله ، وليتأكدوا به على صعوده إلى السماء .

قال الزجاج :" يقال فى الصعود ، رقيت أرقى رقيا ، ويقال فيما تداويه بالعوذة ، رقيت أرقى ورقيا "[8] والظاهر أنهم إنما يطلبون نزول القرآن عليهم جملة واحدة ؛ إذ كانوا ينكرون نزوله متفرقا وكانوا يقولون فيما يحكيه القرآن الكريم عنهم "**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة**"[9] فهم يطلبون نزوله جملة كما أنزل الله الكتب السابقة -التوراة على سيدنا "موسى" ، والإنجيل على سيدنا "عيسى" - ولم يدرك هؤلاء أن الله -ﷻ- إنما أنزله متفرقا لحكمة أرادها (سوف أتعرض لهذه الحكمة فى موضع آخر من هذا البحث بمشيئة الله تعالى).

وبعد ذكر هذه المقترحات التي أشارت إليه الآيات السابقة ، تبين لنا سفه وجهالة هؤلاء القوم ، فهم قد جهلوا ما بأيديهم من المعجزة الباقية التى لا تفنى بمرور الزمان . وهو معجزة القرآن الكريم ، فطلبوا هذه المعجزات المادية التي تفنى فى حينها ، قال -ﷻ- :"**وقالوا لولا نزل عليه**

---

(1) روح المعاني ٩٦/٧ .
(2) سورة الحجر ، الآية: ٧ .
(3) سورة الفرقان ، من الآية: ٧ .
(4) سورة يونس ، من الآية: ٢٤ .
(5) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٦٠/٣ .
(6) روح المعاني ١٦٩/١٥ بتصرف .
(7) سورة الفرقان ، من الآية: ٨ .
(8) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٦٠/٣ .
(9) سورة الفرقان ، من الآية: ٣٢ .

آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون"[١] قال الإمام القرطبى:"هذه منهم تعنتا بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله"[٢].

فعجبا لهؤلاء يؤثرون الفاني -وهو المعجزات الحسية - على الباقي - وهو معجزة القرآن الكريم ، يقول الشيخ سيد قطب:"لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التي صحبت الرسالات السابقة[٣] ولا يقنعون بآية القرآن الباقية التي تخاطب الإدراك البشرى الراشد ، وتعلن عهد الرشد الإنساني ، وتحترم هذا الرشد ، فتخاطبه هذا الخطاب الراقي ، والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذى يرى الخارقة المادية ، بل تظل باقية تواجه الإدراك البشرى بإعجازها إلى يوم القيامة"[٤] وبالرغم من براعة هذا الإعجاز القرآني تراهم يلحون فى طلب الآيات الحسية ، بل ويقسمون أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم ، قال تعالى :"**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها** "[٥] فقد أخرج ابن جرير بسنده عن محمد بن كعب القرظى[٦]قال :" كلم رسول الله -ﷺ- قريشا ، فقالوا : يا محمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى ، وأن ثمود لهم الناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله -ﷺ- : أى شئ تحبون أن آتيكم به ؟ .. فقالوا : تجعل لنا الصفا[٧] ذهبا ، قال : فإن فعلت تصدقوني ؟ .. قالوا : نعم والله ! .. فقام رسول الله -ﷺ- يدعو ، فجاءه جبريل فقال له : إن شئت أصبح ذهبا ، فإن لم يصدقوا عند الله لنعذبنهم ، فإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فأنزل الله قوله " **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ..." إلى قوله "يجهلون"[٨].

ولقد ذكر الإمام الرازي وجها آخر لنزول هذه الآية : وهو أنه لما نزل قوله تعالى:"**إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين**"[٩] .. أقسم المشركون بالله لئن جاءتهم آية

---

[١] سورة الأنعام ، الآية: ٣٧ .
[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى،٤٩١/٦، دار الشعب القاهرة.
[٣] على سبيل المثال معجزات موسى ، عليه السلام ، الحسية والتي منها (العصا ، اليد ، الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم) ، وأيضا معجزات سيدنا عيسى ، عليه السلام ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك ، ومعجزة سيدنا صالح ، عليه السلام ، وهى خروج الناقة من الصخرة.
[٤] فى ظلال القرآن ١٠٧٩/٢ .
[٥] سورة الانعام ، من الآية: ١٠٩ .
[٦] محمد بن كعب القرظى تابعي كبير مات سنة ثمان ومئة وقيل سبع عشرة وقيل عشر وقيل عشرين ومئة ، كان يقص فسقط عليه المسجد ، أسند أحاديث كثيرة وخرج له الجماعة (ينظر طبقات الصوفية الجزء الأول القسم الثاني ، صـ٤٢٩ ، ومشاهير علماء الأمصار لأبى حاتم البستى، صـ ٦٥ ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٥٩م).
[٧] جبل بين بطحاء مكة والمسجد (راجع معجم البلدان لياقوت الحموا ، باب الصاد والفاء وما يليها ٤١١/٣) .
[٨] جامع البيان للطبري ٣١٢/٧ ، كما ذكر هذه الرواية الإمام السيوطى فى لباب النقول فى أسباب النزول صـ ١٩٤ ، ١٩٥ .
[٩] سورة الشعراء ، الآية: ٤ .

ليؤمنن بها فنزلت هذه الآية"[1] ولا مانع من تعدد سبب النزول نظرا لتعدد الواقعة لاسيما وقد كان هؤلاء المشركون يكررون هذا القسم والطلب ، ومعنى الآية : أنهم حلفوا غاية الحلف ، وسمي الحلف قسما ؛" لأنه يكون عند انقسام الناس إلى التصديق والتكذيب فكأنه يقوى القسم الذى يختاره"[2] قال الزجاج :"اجتهدوا فى المبالغة فى اليمين"[3] كأنهم بالغوا فى هذا القسم حتى بلغوا غايته ، وهكذا عجز المشركون عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم ، فلم يجدوا بدا سوى أن يطلبوا هذه الآيات الحسية ، ولكن الله-ﷻ- لم يشأ أن يبلغهم غايتهم ، ويحقق أمانيهم ، رحمة منه- ﷻ- ، إذ لو أنزلها لعذبهم عذاب استئصال فلا يبقى منهم أحدا ؛ كما عذب من سبقهم من الأمم . وتلك نعمة أنعم الله بها على أمة سيدنا محمد -ﷺ- فهو المبعوث رحمة للعالمين ، قال تعالى :"**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**"[4].. وما على رسول الله -ﷺ- إلا البلاغ ، فهو المبلغ والمنذر لا يملك لهم نفعا ولا ضرا ، والله -ﷻ -هو الهاد ، قال عز من قائل :"**ويقول الذين كفروا لولآ أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**"[5] وقال فى آية أخرى :" **قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب**"[6].

خامسا : استعجال الثواب في الدنيا

كان المشركون – لعنهم الله – إذا تذكروا الله -ﷻ- دعوه إلى أمر من أمور الدنيا الفانية ، مستعجلين ثوابهم فيها ، دون النظر إلى نعيم الآخرة الباقي ، وثوابهم الخالد فيها ، وأمثال هؤلاء ليس لهم فيها حظ ولا نصيب ، قال عز من قائل :" **فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق**"[7].." فالمراد من الناس: المشركون ، حيث كانت العرب فى الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط ، وكانوا يسألون الإبل والغنم ، والظفر بالعدو ، ولا يطلبون الآخرة ، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها"[8].

روى ابن جرير الطبري فى تفسيره أنهم كانوا يقولون "هب لنا غنما ، هب لنا إبلا"[9].. فهؤلاء قد قصروا مطالبهم على الدنيا ونسوا حظهم ونصيبهم فى الآخرة ، لذلك كان من شأنهم أن أى عمل يعملونه يريدون به ثواب الدنيا فلا ثواب عليه فى الآخرة ، يقول الإمام

---

[1] مفاتيح الغيب ، المجلد السابع ١١٧/١٣ .
[2] البحر المحيط ٢٠١/٤ .
[3] معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٨١/٢ .
[4] سورة الأنبياء ، الآية: ١٠٧ .
[5] سورة الرعد ، الآية: ٧ .
[6] سورة الرعد، من الآية: ٢٧ .
[7] سورة البقرة ، من الآية: ٢٠٠
[8] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الأول ٢٨٥/٢ ، ٢٨٦ بتصرف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
[9] جامع البيان للطبري ٢٩٨/٢ ، عن عاصم عن أبى وائل .

الرازي:"اعلم أن مراتب السعادات ثلاث : (روحانية – بدنية – خارجية) ؛ أما الروحانية فاثنان : تكميل القوة النظرية بالعلم ، وتكميل القوة العملية بالأخلاق الفاضلة ، وأما البد نية فاثنان : الصحة والجمال ، وأما الخارجية فاثنان : المال والجاه ، فقوله "آتنا في الدنيا" يتناول كل هذه الأقسام فإن العلم إذا كان يراد للتزين به فى الدنيا والترفع به على الأقران كان من الدنيا ، والأخلاق الفاضلة إذا كانت تراد للرياسة فى الدنيا وضبط مصالحها كانت من الدنيا ، وكل من لا يؤمن بالبعث والمعاد ، فإنه لا يطلب فضيلة لا روحانية ولا جسما نية إلا لأجل الدنيا"[1] لذلك لم يكن لهؤلاء نصيب فى الآخرة وهو ما أشار إليه المولى – ﷻ– بقوله "**وما له في الآخرة من خلاق**" .. والخلاق كما قال ابن منظور:" الحظ والنصيب من الخير والصلاح"[2].

فإنهم لا رغبة لهم فيها ، ولا يسعون لها سعيها ، لذلك حرموا من حظها ؛ لأن الله – ﷻ– قد وفاهم أجورهم فى الدنيا ولم ينقص من أجور أعمالهم فى الدنيا شيئا ، قال ﷻ:"**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون**"[3] وزينة الحياة الدنيا "ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وكثرة والأولاد والرياسة وغير ذلك ، والإرادة هنا ما يحصل عند مباشرة الأعمال لا مجرد الإرادة القلبية"[4].

ولقد اختلف فى تأويل هذه الآية ، قيل : " نزلت فى الكفار بدليل الآية التى بعدها:"**أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار**"[5].. أى من أتى منهم بصلة رحم أو صدقة نكافئهم فى الدنيا بصحة الجسم وكثرة الرزق لكن لا حسنة لهم فى الآخرة ، وقيل المراد بالآية : المؤمنون أى من أراد بعمله ثواب الدنيا ، عجل له الثواب ولم ينقص شيئا فى الدنيا ، وله فى الآخرة العذاب ؛ لأنه جرد قصده فى الدنيا وهذا كما قال ﷺ : "إنما الأعمال بالنيات"[6] ، فالعبد إنما يعطى على وجه قصده وبحكم ضميره ، وهذا أمر متفق عليه فى الأمم من كل ملة ، وقيل هؤلاء لأهل الرياء[7] وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء صليتم وصمتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم

---

[1] مفاتيح الغيب ، المجلد الثالث ١٦٠/٥ .

[2] لسان العرب لابن منظور ١٢٤٨/٢ / باب الخاء / مادة خلق ، وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٧٤/١.

[3] سورة هود ، الآية: ١٥ .

[4] إرشاد العقل السليم ١٩٣/٤ .

[5] سورة هود ، من الآية: ١٦ .

[6] أخرجه البخاري فى صحيحه ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ ٢١/١ ، عن عمر بن الخطاب ، بلفظ "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته على ما هاجر إليه".

[7] الرياء ، ترك الإخلاص فى العمل بملاحظة غير الله فيه . (التعريفات للجرجانى صـ ١٥١ . باب الراء) . وقال المناوى ، هو الفعل المقصود به رؤية الخلق غفلة عن الخالق وعماية عنه . (التوقيف على مهمات التعاريف صـ ٣٨٠ ، فصل الياء).

ليقال ذلك ، فقد قيل ذلك ، ثم قال :"إن هؤلاء أول من تسعر بهم النار"[١] وقيل : الآية عامة فى كل من ينوى عمله لغير الله ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن"[٢].

والقول الأولى بالقبول ، والله أعلم : إن الآية نازلة فى مطلق الكفار ؛ لأن سياق الآيات يؤكد ذلك ، فإن ما قبلها حديث عن القرآن ، وإثبات أنه من عند الله ، وليس حديثا مفترى ، بدليل عجزهم عن الإتيان بأقصر آية منه ، قال تعالى :"**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**"[٣].. وما داموا قد عجزوا عن الإتيان بمثله ، فالذي يحملهم على المعارضة ؛ العناد والحسد ، والنظر لحظوظ الدنيا ... ؛ لذلك ذكرت الآية التي نحن بصددها ؛ لبيان أن هؤلاء المريدين حظوظ الدنيا قد نالوها ، ووفاهم الله أجور أعمالهم دون نقص وما بعد هذه الآية فدليل أيضا على أنها نازلة فى الكفار ؛ لأن الله يقول بعدها " **أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون**"[٤] فهؤلاء قد وفاهم الله ثواب أعمالهم الحسنة التى عملوها فى الدنيا ، واستوفوا ثمرة أعمالهم ، فلم يبق لهم فى الآخرة إلا وزر العمل السئ ، أما المؤمن الذي يعمل أعمالا فيها رياء فليس من الضروري أن يحبط الله عمله ، وأن يكون جزاؤه النار ؛ لأن الله قد أخبر فى كتابه العزيز أنه يغفر الذنوب جميعا برحمته ما عدا الكفر به ، قال عز من قائل :"**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**"[٥].

ويؤيد ما سبق قول الإمام أبى السعود – رحمه الله – في تفسير هذه الآية :"والذي تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيه القادحون فى القرآن الكريم اندراجا أوليا ، فإنه –ﷻ– لما أمر نبيه–ﷺ–والمؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بأن

---

[١] والحديث كما جاء فى الترمذى عن أبى هريرة قال: حدثنى رسول الله ﷺ : إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم ، وكل أمة جاثية ، فاول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل يقتتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارئ ، ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ؟ .. قال: بلى يا رب ، قال: فماذا عملت فيما علمت ؟ .. قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له: كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال أن فلانا قارئ فقد قيل ذلك ، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ، ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ .. قال: بلى يا رب ، قال: فماذا عملت فيما آتيتك ؟ .. قال كنت أصل الرحم ، وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة: كذبت ، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذاك . ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله له : فى ماذا قتلت ؟ .. فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جرئ فقد قيل ذاك ، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال: يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة . (سنن الترمذى ، كتاب الزهد ، باب ما جاء فى الرياء والسمعة ٥٩٢/٤ ، ٥٩٣ ، رقم الحديث ٢٣٨٢ ، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب ، ط دار الحديث ، القاهرة ، تحقيق / إبراهيم عطوه عوض).

[٢] راجع هذه الأقوال فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الخامس ١١/٩ ، ومفاتيح الغيب ، المجلد التاسع ١٥٩/١٧ ، ١٦٠.

[٣] سورة هود ، الآية: ١٣ .

[٤] سورة هود ، الآية: ١٦ .

[٥] سورة النساء ، من الآية: ٤٨ .

القرآن منزل بعلم الله ، وبأنه لا قدرة لغيره على شئ أصلا ، وهيجهم على الثبات على الإسلام ، والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة ، وما يدعون من دون الله ، عن المعارضة ، وتبين أنهم ليسوا على شئ أصلا ؛ اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شئ فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية ، وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ، ولقد بين ذلك أي بيان"[١] وإلى هذا القول ذهب أيضا ابن عطية فى محرره[٢] والمراد : "من توفية أجور تلك الأعمال ، هو أن كل ما يستحقون بها من الثواب ، فإنه يصل إليهم حال كونهم فى دار الدنيا ، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات بل ليس منها إلا النار"[٣] ؛ لذلك قال تعالى فى آخر الآية:"**وهم فيها لا يبخسون**" أي " لا تنقص ثواب أعمالهم ، قال ابن منظور :"البخس : النقص ، بخسه حقه يبخسه بخسا إذا نقصه"[٤] و"إنما عبر بالنقص الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أتوه ، كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هى إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك ؛ بناء للأمر على ظاهر الحال ؛ ومحافظة على صور الأعمال ؛ ومبالغة فى نفى النقص ، كأن ذلك نقصا لحقوقهم ، فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا ، والمعنى أنهم فيها خاصة لا ينقصون ثمرات أعمالهم وأجورهم نقصا كليا مطردا ، ولا يحرمونها حرمانا كليا ، وأما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق"[٥].

وينبغى معرفة أن توفية أجورهم فى الدنيا ليس لجميعهم ، فليس كل واحد منهم يجد ما يتمناه ، فذلك كله موكول إلى مشيئة الله -ﷻ-.

وهذا ما نراه فى حياتنا ، فمعظم من هم على الديانات الأخرى غير الإسلام نجدهم قد أعطاهم الله حظوظهم فى الدنيا ، و نجد البعض فى فقر وضيق من العيش ، فتوفية الأجور إذن منوطة بمشيئة الله وإرادته فهو صاحب البسط والتقتير ؛ وهذا ما أشار إليه المولى سبحانه فى قوله "**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد**"[٦] .. فنلاحظ هنا "تقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والإرادة لما أن الحكمة التي عليها يدور فلك التكوين لا تقتضى وصول كل طالب إلى مرامه ، ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه"[٧] فالحسرة والندامة على من ترك الدين لأجل الدنيا ثم خسر الدين والدنيا معا ، قال الإمام الرازي :"كثير من الكفار

---

[١] إرشاد العقل السليم ١٩٤/٤ .
[٢] انظر المحرر الوجيز ١٥٦/٣ .
[٣] مفاتيح الغيب ، المجلد التاسع ١٦٠/١٧ .
[٤] لسان العرب لابن منظور ٢٢١/١ ، باب الباء .
[٥] إرشاد العقل السليم ١٩٣/٤ ، وانظر روح المعاني ٢٤/١٢ .
[٦] سورة الإسراء ، من الآية: ١٨ .
[٧] إرشاد العقل السليم لأبى السعود ١٦٤/٥ .

والضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ، ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين ، فهؤلاء هم الأخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"[1].

ونظير هذا قوله تعالى:"**ومن كان يريد حرث[2]الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب**"[3].

من خلال ما سبق من الآيات تبين أن هؤلاء الكفار تعجلوا ثوابهم في الدنيا ، بأعمالهم الحسنة ، فآتاهم الله إياه ، ثم جعل لهم جهنم يصلونها مذمومين ، مدحورين " **ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا**" ، قال الإمام القشيري – رحمه الله – : " من قنع منهم بدنيا ، الدناءة صفتها ، وسعنا عليه فى الاستمتاع بأيام فيها ، ولكن عقب اكتمالها سيرى زوالها ، ويذوق بعد عسلها حنظلها[4]"[5] ، وصدق رسول الله –ﷺ– إذ يقول :"من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له"[6].

المبحث الثاني

استعجال مشركي الأمم السابقة

لم يكن استعجال العذاب بدعا فى مكذبي أمة محمد–ﷺ– بل كانت سنة مبتدعة فى مكذبي الأمم السابقة من القرون الماضية ، من هؤلاء قوم هود عليه السلام ، وقوم صالح عليه السلام ، وقوم موسى عليه السلام .

---

[1] مفاتيح الغيب للرازى ، المجلد العاشر ١٤٣/٢٠ بتصرف .

[2] الحرث والحراث ، العمل فى الأرض ذرعا كان أو غرسا ، والحرث ، الكسب واحترث المال ، كسبه ، الحرث ، متاع الدنيا(لسان العرب لابن منظور ٨١٩/٢ ، ٨٢٠ ، باب الحاء) قال القرطبى: الحرث ، العمل والكسب (الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الثامن ١٣/١٦) وقال محمد محمود حجازى فى تفسيره ، الحرث فى الأصل ، إلقاء البذر فى الأرض ، وقد يطلق على الثمر ، ويستعمل فى ثمرات الأعمال ونتائجها على سبيل الاستعارة حيث شبه ثمره العمل بالغلال الحاصلة من البذر ، وهذا يتضمن تشبيه الأعمال بالبذور(التفسير الواضح ٣٦٦/٣).

[3] سورة الشورى ، الآية: ٢٠ .

[4] الحنظل ، نبت مر(المصباح المنير ١٤١/١ ، كتاب الحاء ، مادة حظل).

[5] لطائف الإشارات ١٢٨/٢.

[6] أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -ﷺ- ٦٤٢/٤ ، رقم الحديث (٢٤٦٥) ، عن أنس بن مالك ، والحديث لم يحكم عليه الترمذى بشئ من الصحة والضعف وفى سنده يزيد الرقاشى وهو ضعيف على ما قال الحافظ ، وقال المنذرى فى الترغيب والترهيب بعد ذكر هذا الحديث ، ويزيد قد وثقه ولا بأس به فى المتابعات(راجع تحفة الأحوذى ١٣٩/٧ ، والترغيب والترهيب للمنذرى ، كتاب التوبة والزهد والترغيب فى التوبة والمبادرة بها واتباع السيئة الحسنة ٥٧/٤ ، رقم الحديث (٤٧٨٩).

أولا : استعجال قوم هود – عليه السلام –:

من الأقوام الذين استعجلوا عذاب الله قوم هود –عليه السلام– فلقد استعجلوا العذاب حين دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، قال تعالى على لسان نبيه هود :"**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غيره أفلا تتقون**"[1].. ولكنهم كذبوه ونسبوه إلى السفه والكذب ، قال تعالى حاكيا عنهم :"**إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين**"[2] وأنكروا عليه دعوته إلى عبادة الله وحده ، وترك ما كان يعبد آباؤهم ، فقالوا "**أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا**"[3].. ثم استعجلوا العقوبة على تكذيبهم استهزاء منهم ، وإنكارا لهود – عليه السلام– وقالوا :"**فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**"[4] .."وقولهم ذلك يدل على تصميمهم على تكذيبه واحتقارهم لأمر النبوة واستعجال العقوبة ، إذ هى عندهم لا تقع أصلا"[5] قال الدكتور وهبة الزحيلى :"ازدادوا طغيانا وعنادا وإنكارا على هود – عليه السلام – واشتطوا فى الحماقة والتحدي فطلبوا إنزال العذاب عليهم على ترك الإيمان به ، قائلين :"فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين" ، أي استعجل إنزال العذاب علينا إن كنت صادقا فى تهديدك ووعيدك"[6] .

والفاء فى قوله "فأتنا بما تعدنا" : لتفريع طلب تحقيق ما توعدهم به ، وتحديا لهود ، وإشعارا له بأنهم موقنون بأن لا صدق للوعيد الذى يتوعدهم فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب ، فالأمر فى قولهم "فائتنا" للتعجيز ، والإتيان بالشئ حقيقته أن يجييء مصاحبا إياه ، ويستعمل مجازا فى الإحضار والإثبات كما هنا، والمعنى فعجل لنا ما تعدنا به من العذاب ، وأسندوا الفعل إلى ضميره تعريضا بأن ما توعدهم به هو شئ من مختلقاته وليس من قبل الله تعالى ؛ لأنهم يزعمون أن الله لا يحب منهم الإقلاع عن عبادة آلهتهم ؛ لأنه لا تتعلق إرادته بطلب الضلال فى زعمهم "[7].

ويستنبط مما سبق :أن القوم أرادوا بقولهم "فائتنا بما تعدنا" عدة أمور :الأول : الإشعار بأنهم موقنون بكذب هود –عليه السلام– وأنهم لا يخشون وعيده ، ولذلك عقبوا طلبهم "بالفاء" ، والثانى : تعجيز سيدنا هود – عليه السلام– بالأمر فى قولهم "ائتنا" ، والثالث : إسناد الوعيد إلى هود –عليه السلام–

---

[1] سورة الأعراف ، من الآية: ٦٥ .
[2] سورة الأعراف، من الآية: ٦٦ .
[3] سورة الأعراف، من الآية: ٧٠ .
[4] سورة الأعراف، من الآية: ٧٠ .
[5] البحر المحيط ٣٢٥/٤ ، الناشر دار الكتاب الاسلامى ، القاهرة .
[6] التفسير المنير ٢٦٤/٨ .
[7] التحرير والتنوير ٢٠٨/٨ ، ٢٠٩ .

دون الله ، تعريضا بأن هذا الوعيد من عند هود ، وليس من قبل المولى- ﷻ-؛ لأن المولى لا يحب لهم الإقلاع عن عبادة هذه الآلهة في ظنهم.

ونلمح من السياق القرآني ؛ أن هودا لم ينذرهم بسوء ، ولم يتقدم ذكر للعذاب ؛ لذلك ذهب المفسرون إلى أن العذاب مدلوله قوله "أفلا تتقون" ، يذكر الإمام الألوسى فى هذا الشأن ما نصه :"أراد بما فى قوله "بما تعدنا" العذاب المدلول عليه بقوله "أفلا تتقون"[١] وقال ابن عاشور: "الوعد الذي أرادوه وعد بالشر وهو الوعيد ولم يتقدم ما يفيد أنه توعدهم بسوء ، فيحتمل أن يكون وعيدا ضمنيا تضمنه قوله "أفلا تتقون" ؛ لأن إنكاره عليهم انتفاء الاتقاء ، دليل على أنه ثمة ما يحذر منه ، ولأجل ذلك لم يعينوا وعيدا فى كلامهم بل أبهموه بقولهم "بما تعدنا" ويحتمل أن يكون الوعيد تعريضا من قوله "**إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح**"[٢] .. المؤذن بأن الله استأصل قوم نوح وأخلفهم بعاد[٣]فيوشك أن يستأصل عادا ويخلفهم بغيرهم"[٤].

والقول الأولى بالقبول -والله أعلم- : أن القرآن مرتبط بعضه ببعض ، فقد يذكر أمرا فى موضع ، ولا يذكره فى موضع آخر اكتفاء بذكره فى الموضع الأول ، والعذاب قد ورد ذكره فى سورة الأحقاف بقوله -ﷻ- على لسان سيدنا هود - عليه السلام - :"**ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم {} قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**"[٥] فهذه الآية تبين أنه قد أنذرهم بالعذاب وسماه لهم ؛ لذلك لم يرد فى هذه الآية اكتفاء بذكره فى هذا الموضع ، وقولهم "إن كنت من الصادقين" ، تحتمل وجهين:

الأول : إن كنت من الصادقين فى الإخبار بنزول العذاب ، قاله أبو السعود[٦].

الثانى : إن كنت من الصادقين فى الإخبار بأنك رسول الله إلينا ، قاله الألوسى[٧]

والوجهان مراد ؛ حيث إنه بنزول العذاب يتبين لهم صدق نبوته وهذا على زعمهم الباطل ، و"إن"" هنا شرطية وجوابها محذوف لدلالة المذكور عليه أي فأت به"[٨].

وإنما"عقبوا كلامهم بالشرط ؛ استقصاء لمقدرته ؛ قصدا منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب ، فلا يسعه إلا الاعتراف بأنه كاذب"[٩] كانت هذه سفاهة هؤلاء الكفرة وحماقتهم ، فبدلا

---

[١] روح المعانى ١٥٨/٨ ، وينظر إرشاد العقل السليم ٢٣٩/٣ .
[٢] سورة الأعراف ، من الآية: ٦٩ .
[٣] عاد بن عوص - بن إرم بن سام بن نوح ، وهو عاد الأولى ، وكانت مساكنهم ما بين الشجر وعمان وحضرموت بالأحقاف ، وكانوا جبارين طوال القامة (الكامل فى التاريخ ٦٥/١) .
[٤] التحرير والتنوير ٢٠٩/٨ .
[٥] سورة الأحقاف ، من الآية: ٢١، والآية: ٢٢ .
[٦] إرشاد العقل السليم ٢٣٩/٣ .
[٧] روح المعانى ١٥٨/٨ .
[٨] روح المعانى ١٥٨/٨ ، وانظر إرشاد العقل السليم ٢٣٩/٣ .
[٩] التحرير والتنوير ٢٠٩/٨ .

من الإيمان بالله والإذعان بربوبيته ، يستعجلون عذابه ، وبدلا من معرفة وجه الحق ، يلقونه وراءهم ظهريا ، يقول الشيخ قطب :"وهكذا استعجل القوم العذاب فرارا من مواجهة الحق ، بل فرارا من تدبر تفاهة الباطل الذى هم له عبيد"[1].

ثانيا : استعجال قوم سيدنا صالح – عليه السلام– للعذاب:

أرسل الله– عز وجل– سيدنا صالح إلى ثمود[2] فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وذكرهم بنعم الله عليهم ؛ إذ هو الذي أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها ، وجعلهم خلفاء من بعد قوم عاد ، ثم أمرهم بالاستغفار لخالقهم والتوبة والإنابة إليه ، قال تعالى:"**وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب**"[3].

وتذكر القصص : أن ثمود اجتمعوا يوما فى ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله ، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة من صفتها "كيت وكيت" وذكروا أوصافا سموها ، ونعتوها ، وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشراء طويلة من صفتها "كذا وكذا" ، فقال لهم النبى صالح – عليه السلام– : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به ؟ .. وتصدقونني فيما أرسلت به ؟ .. قالوا : نعم ، فأخذوا عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله –عز وجل– ما قدر له ، ثم دعا ربه –عز وجل– أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله –عز وجل– تلك الصخرة أن تلفظ عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا ، فلما عاينوها كذلك ، رأوا أمرا عظيما ، ومنظرا هائلا ، وقدرة باهرة ، ودليلا قاطعا ، وبرهانا ساطعا ، فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم .. ثم قال لهم صالح –عليه السلام– : "هذه ناقة الله لكم آية "أضافها لله سبحانه وتعالى تشريفا وتعظيما .. فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ، ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرعون حاجاتهم من الماء فى يومهم لغدهم ، ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم "لها شرب ولكم شرب يوم معلوم" .. ولهذا قال

---

[1] فى ظلال القرآن ١٣١١/٣ .

[2] ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو حديس والقبيلة سميت بذلك لقلة مائها ، والثمد الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام ، وكانوا فى سعة من معايشهم ، فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره ، وأفسدوا فى الأرض ، فبعث الله إليهم صالحا نبيا وكان من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا فدعاهم إلى الله وعبادته فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون . (راجع قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس للثعلبى صـ ٧٧ بتصرف .

[3] سورة هود ، الآية: ٦١ .

تعالى:" **إنا مرسلو الناقة فتنة لهم**"[١] أى اختبارا لهم ، أيؤمنون بها أم يكفرون ، والله أعلم بما يفعلون "فارتقبهم" أى انتظر ما يكون من أمرهم ، "واصطبر" على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ، "**ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر**"[٢].. فلما طال عليهم الحال هذا ، اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ؛ ليستريحوا منها ، ولتوفر عليهم ماءهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم"[٣].

من خلال هذه القصة تبين لنا أن هؤلاء هم الذين طلبوا المعجزة الخارقة المتمثلة فى خروج الناقة من الصخرة فاستجاب الله -ﷻ- لهم ، وجعلها علامة لهم على تأخير العذاب ، وأنهم آمنون ما ظلت هذه الناقة آمنة ، إلا أن سفههم وجهلهم حملهم على تعجيل العذاب عليهم بعقر هذه الناقة وبتمردهم وطغيانهم ، قال عز من قائل مخبرا عن فعلهم :" **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين**"[٤] فاستعجالهم العذاب قد تمثل في ثلاثة أمور أوضحتها تلك الآية :

الأول : عقرهم للناقة ، وهو ما أشار إليه بقوله "فعقروا الناقة" ، والناقة :" الأنثى من الإبل ، ونوق ونياق ، واستنوق الجمل : تشبه بالناقة"[٥] والعقر : النحر ، وفى اللغة : "عقره عقرا من باب ضرب: جرحه(وعقر) البعير بالسيف (عقرا) : ضرب قوائمه به ، وعقره : نحره فهو عقير"[٦] والمعنى :" نحروا تلك الناقة وهم الطالبون لها ، وإنما أسند العقر إلى الكل مع أن المباشر بعضهم[٧] ؛ إما للملابسة أو لأن ذلك كان برضاهم فكأنه فعله كلهم ، وفى هذا تهويل الأمر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل"[٨].

الثاني : العتو عن أمر الله وإليه الإشارة بقوله "وعتوا عن أمر ربهم" والعتو :" تجاوز الحد فى الكبر وتعديته بـ "عن" لتضمنه معنى الإعراض"[٩] وفى المعجم : عتا عتوا وعتيا : استكبر وجاوز الحد فهو عات ، الجمع عتاة ، وعتى ، ويقال عتت الريح : جاوزت مقدار هبوبها ، ويقال : عتا الشيخ : كبر وولى[١٠].

---

[١] سورة القمر ، من الآية: ٢٧ .
[٢] سورة القمر ، الآية: ٢٨ .
[٣] البداية والنهاية لابن كثير ١٣٤/١ ، ١٣٥ .
[٤] سورة الأعراف ، الآية: ٧٧ .
[٥] المصباح المنير ٦٣١/٢ ، كتاب النون .
[٦] المصباح المنير ٤٢١/٢ ، كتاب العين .
[٧] إذ آن المتولى ذلك رئيسهم " قدار بن سالف بن جندع" وكان أحمر أزرق أصهب ، وكان يقال أنه ولد زانية ، ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له صبيان . (راجع البداية والنهاية لابن كثير ١٣٥/١).
[٨] إرشاد العقل السليم ٢٤٣/٣ ، وانظر مفاتيح الغيب ، المجلد السابع ١٣٤/١٤ .
[٩] التحرير والتنوير ٢٢٦/٨ .
[١٠] المعجم الوسيط ٥٨٣/٢ ، باب العين ، مطابع دار المعارف ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

فالعتو يدور حول معنى الاستكبار والإعراض ، ومعنى الآية : استكبروا عن امتثال أمر ربهم ، وهو ما أمر به تعالى على لسان سيدنا صالح فى قوله:"**فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء**" .. وعن إتباع أمر الله وهو دينه وشرعه ، ويجوز أن يكون المعنى صدر عتوهم عن أمر ربهم ؛ كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب فى عتوهم ، ونحو هذه ما في قوله:"**وما فعلته عن أمري**[1]"[2].

ويستنبط مما سبق : أن العتو هو تجاوز الحد فى الكبر والعناد ، وهو لا يتعدى بـ "عن" لكنه لما تضمن معنى الإعراض والتولي تعد بـ "عن" ، كما يستنبط أيضا أن أمر الله إما أن يكون هو ما أمر به -ﷻ- على لسان نبيه صالح من ترك الناقة تأكل فى الأرض ، وعدم مسها بأذى ، وهذا ما اختاره ابن عاشور إذ يقول: "(أمر ربهم) هو ما أمرهم به على لسان صالح من قوله "ولا تمسوها بسوء" فعبر عن النهى بالأمر ؛ لأن النهى عن الشئ مقصود منه الأمر بفعل ضده "[3].ويجوز أن يكون المراد من أمر الله هو دينه وشرعه إذ كانوا يكفرون بالله وبرسوله ﷺ .والأول أقرب للصواب ؛ لأن الحديث إنما هو عن أمر الله لسيدنا صالح بأن ينهاهم عن التعرض للناقة ، وسياق الآيات خير دليل على ذلك .

ويستنبط كذلك .. أن العتو إما أن يكون بمعنى الاستكبار عن امتثال أمر الله ، وإما أن يكون بمعنى الإصدار وهو أنه قد صدر عتوهم عن أمر ربهم وبسببه ، إذ لولا هذا الأمر ما صدر هذا العتو. وفى هذا الشأن يقول الإمام الألوسى :"عتوا عن أمر ربهم استكبروا عن امتثاله ، وهو ما بلغهم صالح -عليه السلام- من الأمر السابق ، فالأمر واحد الأوامر ، وجوز أن يكون واحد الأمور ، أي استكبروا عن شأن الله تعالى ودينه ، وهو بعيد ، وأوجب بعضهم على الأول أن يضمن (عتوا) معنى التولى أى تولوا عن امتثال أمره عاتين ، أو معنى الإصدار أي صدر عتوهم عن أمر ربهم ونبيه لأنه تعالى لما أمر بقوله "فذروها" ... إلخ ابتلاهم ، فما امتثلوا فصاروا عاتين بسببه ، ولولا الأمر ما ترتب العقر ، والداعي للتأويل بتولوا أو صدر ؛ أن عتا لا يتعدى بـ "عن" ، فتعديته به لذلك ، وبعضهم لا يقول بالتضمين بناء على أن عتا بمعنى استكبر وهو يتعدى بـ "عن" فافهم"[4].

الثالث: طلبهم العذاب بلسانهم ، إذ أن استعجال العذاب يكون بأحد أمرين ، الأول : التمادي فى الطغيان والإصرار على الكفر ، وفعل ما يستحقون عنده نزول العذاب عليهم ، وهو ما سبق ذكره وأشير إليه بقوله "فعقروا الناقة وعتو عن أمر ربهم"[5] والثاني : أن يكون باللسان

---

[1] سورة الكهف ، من الآية: ٨٢ .
[2] البحر المحيط ٣٣١/٤ ، راجع مفاتيح الغيب ، المجلد السابع ١٣٥/١٤ .
[3] التحرير والتنوير ٢٢٦/٨ .
[4] روح المعانى للألوسى ١٦٥/٨ .
[5] سورة الأعراف ، من الآية: ٧٧ .

فيطلبونه عيانا ، وهو المشار إليه بقوله تعالى على لسانهم "**وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين**"[1] أى قالوا مخاطبين له – عليه السلام – بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم : يا صالح ائتنا بما تعدنا أى من العذاب ، والإطلاق للعلم به "إن كنت من المرسلين" .." أى إن كنت من جملتهم يستدع صدق ما تقول من الوعيد"[2] وهذا إنما يدل على جهلهم وحماقتهم ، إذ يظنون أنهم بعصيانهم أمر الله وإصرارهم على الكفر ، يشتد غضبه –عز وجل– عليهم فيبادر بإنزال العذاب ، يقول الإمام ابن عاشور:"لجهلهم بحقيقة تصرف الله تعالى وحكمته ، يحسبون أن تصرفات الله كتصرفات الخلق ؛ فإذا أرسل رسولا ولم يصدقه المرسل إليهم ، غضب الله واندفع إلى إنزال العقاب إليهم ، ولا يعلمون أن الله يمهل الظالمين ثم يأخذهم متى شاء"[3] ولقد قص الله –عز وجل– قصة قوم صالح فى أكثر من موضع ، منها ما جاء فى سورة الشعراء : "**ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين {} قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم {} ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم**"[4] وقال عز من قائل فى سورة القمر :"**إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر {} ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر {} فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر {} فكيف كان عذابي ونذر**"[5].

كان هذا هو استعجال قوم سيدنا صالح للعذاب متمثلا فى العقر والتمادي وطلب العذاب لأنفسهم ، وهم بهذا يستعجلون العذاب قبل الرحمة ، والبلاء قبل العافية ، والضلال قبل الهداية ، لذلك ناداهم نبيهم نداء المنكر والمتعجب من حالهم باستعجالهم السيئة قبل الحسنة ، فهلا يستغفرون خالقهم ويطلبون منه رحمته وثوابه بدلا من عذابه وعقابه ، قال –عز وجل– على لسان نبيه –عليه السلام– :"**قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون**"[6] ولقد ذكر الإمام الرازي – رحمه الله – لهذا الإنكار وجهين :" **أحدهما** : إن الذين كذبوا صالحا – عليه السلام– لما لم ينفعهم الحجاج ؛ توعدهم صالح بالعذاب فطلبوه على وجه الاستهزاء ، فعنده قال صالح " **لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة**" .. والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل إلى رحمة الله وثوابه ، فلماذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه ؟! ..

ثانيهما : إنهم كانوا يقولون لجهلهم أن العقوبة التى يعدها صالح إن وقعت على زعمه أتينا حينئذ واستغفرنا فيقبل الله توبتنا ، ويدفع العذاب عنا ، فخاطبهم صالح – عليه السلام– على حسب اعتقادهم ، وقال : هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال

---

[1] سورة الأعراف، من الآية: ٧٧ .
[2] إرشاد العقل السليم ٢٤٣/٣ ، وانظر روح المعانى ١٦٥/٨ ، ومفاتيح الغيب ، المجلد السابع ١٣٥/١٤ ، والبحر المحيط ٣٣١/٤.
[3] التحرير والتنوير ٢٢٦/٨ .
[4] سورة الشعراء ، الآيات: ١٥٥ : ١٥٧ .
[5] سورة القمر ، الآيات: ٢٧ : ٣٠ .
[6] سورة النمل ، الآية: ٤٦ .

الشر"[1] وفى تفسير قوله تعالى "بالسيئة قبل الحسنة" ، أقوال :قيل : بالعذاب قبل الرحمة[2]وقيل : بالبلاء قبل العافية .[3]وقيل : بالعقاب قبل الثواب[4] وقيل : بمعصية الله تعالى قبل الطاعة[5] والقول الأولى بالقبول : إن السيئة عامة تشمل كل ما يسوء المرء من العذاب والبلاء والعقاب ومعصية مولاه -ﷻ- وكذلك الحسنة تشمل كل ما يسر المرء من الرحمة والعافية والثواب وطاعة خالقه-ﷻ- .. وقد سبقت الإشارة إلى معنى السيئة والحسنة عند تفسير قوله -ﷻ- **"ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات"**[6].

وبعد أن أنكر عليهم استعجالهم للعذاب ، بين لهم السبيل والطريق إلى النجاة والهداية ، وهو اللجوء والتضرع إلى مولاهم والاستغفار لعله -ﷻ- يغمرهم برحمته التى وسعت كل شئ ؛ فقال :" **لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون** " .. أي "هلا تطلبون من الله المغفرة وتتوبون إليه من كفركم لكى ترحموا !! .. لأنه إذا نزل العذاب لم تنفعكم التوبة[7]"[8] فهؤلاء قد جهلوا بحقائق الأمور فاستعجلوا نزول العذاب عليهم ، واعتقدوا أنهم سيضرعون إلى الله عند مشاهدة العذاب ، فيغفر لهم ، ولكن هيهات هيهات !! .. فعندما يحل عليهم غضب الله وعذابه فقد فات أوان التوبة ، وحينئذ يقعون بين يدى خالقهم وباعثهم – رب العالمين – وسيجازيهم على أعمالهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير – أعاذنا الله من نار جهنم – .

ثالثا:استعجال قوم سيدنا موسى -عليه السلام-:

أوضحنا فى سالف الذكر ؛ أن استعجال العذاب يكون بأحد أمرين :أولهما : بالتمادي والطغيان وفعل ما يستحق عليه تعجيل العقوبة ، والثانى : طلبه عيانا من الله -ﷻ- .

وما حدث هنا من قوم سيدنا موسى – عليه السلام- من استعجالهم للعذاب إنما هو من قبيل الأمر الأول ؛ إذ أن هؤلاء قد فعلوا فعلا شنيعا استعجلوا به عذاب الله وعقابه ، وهو اتخاذهم العجل إلها من دون الله-ﷻ- وسأقص فى هذا البحث قصة اتخاذهم العجل واستعجالهم لأمر

---

[1] مفاتيح الغيب ، المجلد الثانى عشر ١٧٣/٢٤ بتصرف .
[2] النكت والعيون للماوردى ٢١٨/٤ .
[3] النكت والعيون للماوردى ٢١٨/٤ .
[4] مفاتيح الغيب ، المجلد الثانى عشر ١٧٤/٢٤ .
[5] المحرر الوجيز ٢٦٣/٤ .
[6] سورة الرعد ، من الآية: ٦ .
[7] حيث قال عز وجل "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما {} وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما" (سورة النساء ، الآيات: ١٧ ، ١٨) لذلك لم يقبل الله توبة فرعون حين قال وهو يغرق آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، حيث قالها وقد حضره الموت ، بينما قبل الله توبة قوم يونس حين تضرعوا إلى الله فى هذه المهلة وقبل مشاهدة العذاب ، قال تعالى ،" فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين"(سورة يونس ، الآية: ٩٨)
[8] التفسير المنير ، د/ وهبه الزحيلى ٣١٧/١٩ .

الله -ﷻ- فأقول وبالله العون والسداد : كان سيدنا موسى -عليه السلام- قد وعد قومه بنى إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وأهلك الله عدوهم ؛ أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون "فلما أهلك الله فرعون ، وأنجى بنى إسرائيل ، قالوا : يا موسى ، ائتنا بالكتاب الذي وعدتنا ، فسأل موسى ربه ذلك ، فأمره أن يصوم ثلاثين يوما ، ويتطهر ويطهر ثيابه ، ويأتى الجبل - طور سيناء ، ليكلمه الله ويعطيه الكتاب ، وسار إلى الجبل ، واستخلف هارون على بنى إسرائيل ، فلما قصد الجبل ، أنكر ريح فمه فتسوك بعود خرنوب[1] ، وقيل : تسوك بلحاء[2] شجرة فأوحى الله إليه ، أما علمت أن خلوف[3] فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، وأمره أن يصوم عشرة أيام أخرى فصامها وهى عشر ذي الحجة فتم ميقات ربه أربعين ، ففى تلك العشر افتتن بنو إسرائيل ؛ لأن الثلاثين انقضت ولم يرجع إليهم موسى"[4] وفى هذه المواعدة يقول عز من قائل :" **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**"[5].

من هنا يتبين أن مدة الميقات كانت ثلاثين ليلة ثم زيدت عشرا فبلغت الأربعين، وأن بنو إسرائيل ما علموا بهذه الزيادة ، فعندما تأخر عنهم سيدنا موسى ، لم يصبروا على طاعة الله ، والالتزام بأوامر رسوله ، فتركوا عبادة ربهم ، واتخذوا من حليهم عجلا ، وجعلوه إلها لهم ، وهذا ليس بمستغرب عليهم ، بل هذا دأبهم ، فلقد عاش بنو إسرائيل فترة طويلة من الزمن مع المصريين يعبدون الأصنام والأوثان ، ثم هداهم الله إلى عبادته ولكن ظل داء التقليد يسرى فيهم ، فكانوا كلما سنحت لهم فرصة خاطفة عادوا لما كانوا عليه ، ومثال ذلك عندما جاوز بهم موسى -عليه السلام- البحر وجدوا قوما يعبدون إلها ، فطلبوا من سيدنا موسى أن يجعل لهم إلها كما لهؤلاء إله ، فردهم موسى -عليه السلام- إلى صوابهم ورشدهم ، قال تعالى:

"**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون {} إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون {} قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين**"[6] ثم ذكرهم بنعم الله -ﷻ- عليهم .. قال -ﷻ-على لسان نبيه موسى -عليه السلام- :"**وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**"[7]

---

[1] الخرنوب والخروب ، شجر ينبت بالشام له حب كحب الينبوت يسميه أهل العراق القيثاء الشامى وهو يابس أسود(العين للفراهيدى ٣٣٧/٤ ، باب الخاء مع الراء).

[2] لحاالشجرة يلحوها لحوا قشرها، ولحاء كل شجرة قشرها(راجع لسان العرب٤٠١٥/٥، مادة لحا ، باب اللام).

[3] خلف فم الصائم خلوفا ، أى تغيرات رائحته . (لسان العرب ١٢٤١/٢ ، باب الخاء ، مادة خلف) .

[4] راجع الكامل فى التاريخ ١٤٥/١ .

[5] سورة الأعراف ، الآية: ١٤٢ .

[6] سورة الأعراف ، الآيات: ١٣٨ : ١٤٠ .

[7] سورة الأعراف ، الآية: ١٤١ .

فتذكروا تلك النعم فعادوا إلى رشدهم ، ثم جاءتهم فرصة أخرى لعبادة غير الله ؛ وهي اتخاذ العجل إلها عند غياب سيدنا موسى – عليه السلام– قال تعالى مخبرا عن ذلك :"**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين**"[1].. "وعنى بقوله "من بعده" أي من بعد ذهابه إلى الطور"[2] والمتخذ لذلك العجل رجل يدعى "السامرى" ، وقد سماه الله –عز وجل– فى سورة طه عند مخاطبته لموسى وإخباره بفتنة قومه من بعده ، قال تعالى :"**قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري**"[3].. فهذا إخبار من الله –عز وجل– على أن المتخذ للعجل إلها ، والمضلل لبنى إسرائيل هو السامرى. قال الإمام أبو السعود عند تفسير هذه الآية :" إنما قال "أضلهم السامرى" حيث كان هو المدبر فى الفتنة ، فقال لهم : إنما أخلف موسى –عليه السلام– ميعادكم ، لما معكم من حلى القوم ، وهو حرام عليكم ، فكان من أمر العجل ما كان"[4] والسامرى هذا قيل" كان ابن عم موسى واسمه موسى بن ظفير ، ويقال : كان من أهل باجرما[5]"[6] . وقيل : كان من قوم يعبدون البقر جيران لبنى إسرائيل ولم يكن من بنى إسرائيل"[7]..... وغير ذلك من الأقاويل والروايات التي وردت في ذلك .

وأيا كان هو ، فالذي ينبغى معرفته أنه كان رجلا منافقا ظاهر العداوة لموسى –عليه السلام– ذا مكانة في بنى إسرائيل ، وهو المسبب لفتنتهم ، ومع أنه هو المتخذ لذلك الإله فقد نسب الله – عز وجل– ذلك الفعل لجميع القوم ، فقال عز وجل :"واتخذ قوم موسى" .. ولم يقل "واتخذ السامرى" . وفى ذلك وجهان ذكرهما الإمام الرازي فى تفسيره:الأول : أن الله نسب الفعل إليهم ؛ لأن رجلا منهم باشره ، كما يقال : بنو تميم قالوا كذا ، وفعلوا كذا ، والقائل والفاعل واحد .الثاني : أنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به ، كأنهم اجتمعوا عليه"[8] وقد سبق الإشارة إلى مثل هذا عند تفسير قوله تعالى " **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك**" .والحلى المذكور فى هذه الآية :" جمع حلى كثدى وثدى ، وهو ما يتخذ للزينة ويتحلى به من الذهب والفضة"[9].

وقد يتساءل سائل : من أين أتى القوم بهذا الحلى لاسيما وقد كانوا مستضعفين مستذلين من قبل فرعون وجنوده ؟ ..قيل :" إن بنى إسرائيل كان لهم عيد يتزينون فيه ، ويستعيرون من القبط الحلى ، فاستعاروا حلى القبط لهذا اليوم ، فلما أغرق الله القبط ، بقيت تلك الحلى فى أيدى بنى

---

[1] سورة الأعراف ، الآية: ١٤٨ .
[2] إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٢٧٢/٣ ، وانظر روح المعانى ٦٢/٩ .
[3] سورة طه ، من الآية: ٨٤ .
[4] إرشاد العقل السليم لأبى السعود ١٣٤/٥ .
[5] بفتح الجيم وسكون الراء وميم وألف مقصورة قرية من أعمال البليخ قرب الرقة من أرض الجزيرة . (معجم البلدان ٣١٣/١ ، حرف الباء) .
[6] البدء والتاريخ ٩١/٣ .
[7] البداية والنهاية ٣٠٥/١ .
[8] مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ٦/١٥ .
[9] روح المعانى ٦٢/٩ ، وانظر المفردات للراغب صـ ١٣٠ ، كتاب الحاء .

إسرائيل ، فجمع السامرى تلك الحلى ، وكان رجلا مطاعا فيهم ذا قدر ، وكانوا قد سألوا موسى – عليه السلام – أن يجعل لهم إلها يعبدونه فصاغ السامرى عجلا"[1]. قال الزجاج :" وهو قولهم "**ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها**"[2] .. أى ألقيناها "فكذلك ألقى السامرى"[3] ، أي وكذلك طرح السامرى ماكان عنده من الحلى فصاغه في العجل"[4] "روى أن جبريل – عليه السلام – أتى موسى ليذهب به إلى الله –عز وجل– فأقبل على فرس ، فرآه السامرى فأنكره ، ويقال : إنه فرس الحياة ، فقال حين رآه : إن لهذا شأنا ، فأخذ من تربة الحافر (حافر الفرس) فانطلق موسى واستخلف هارون على بنى إسرائيل وواعدهم ثلاثين ليلة وأتممها الله بعشر ، فقال لهم هارون : "يا بنى إسرائيل إن الغنيمة لا تحل لكم ، وإن حلى القبط إنما هو غنيمة فاجمعوها جميعا ، فاحفروا لها حفرة فادفنوها ، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها ، وإلا كان شيئا لم تأكلوه" ، فجمعوا ذلك الحلى فى تلك الحفرة ، وجاء السامرى بتلك القبضة فقذفها ، فأخرج الله من الحلى عجلا جسدا له خوار"[5] ولقد بين لنا القرآن الكريم ملامح هذا الإله المتخذ من دون الله – جل جلاله– ليؤكد على مدى سفاهة هؤلاء القوم ، وعدم تدبرهم وتفكيرهم فى هذا الإله المتخذ من دون رب العزة الذى أنقذهم من جبروت فرعون وجنوده .

أولا : عجلا ، "والعجل ولد البقر خاصة ، والمراد هنا ما هو على صورة العجل"[6]، إذن هذا الإله له صورة .

ثانيا : جسدا ، "وهو الذي لا يعقل ولا يميز ، إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط"[7]، أى أن هذا الإله جسدا لكنه جثة هامدة لا تعقل ولا تميز ، فهو بدن بلا روح ، وفى المصباح المنير : (الجسد جمعه أجساد .. ولا يقال الجسد إلا للحيوان العاقل ، وهو الإنسان والملائكة والجن ، ولا يقال لغيره "جسد" إلا للزعفران وللدم إذا يبس أيضا "جسد" ، "جاسد" . وأما هذه الآية فالمعنى : أنه ذا جثة على التشبيه بالعاقل وبالجسم"[8] وقال ابن عاشور : "الجسد الجسم الذي لا روح فيه ، والمراد أنه كجسم العجل فى الصورة والمقدار ، إلا أنه ليس بحى"[9].

---

[1] مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ٦/١٥ .
[2] سورة طه ، من الآية: ٨٧ .
[3] سورة طه ، من الآية: ٨٧.
[4] معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٣٧٧/٢ .
[5] راجع تاريخ الطبرى ٢٤٩/١ ، ٢٥٠ ، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٠٥/١ .
[6] روح المعانى ٦٣/٩ .
[7] معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٣٧٧/٢ .
[8] المصباح المنير ١٠١/١ بتصرف ، كتاب الجيم .
[9] التحرير والتنوير ١١٠/٩ بتصرف .

ثالثا : له خوار ، "أى صوت ، وقيل : له جوار بالخاء والجيم ، وكلاهما من الصوت"[١] قال ابن منظور : "الخوار : صوت الثور وما اشتد من صوت البقر والعجل ، وقيل: الخوار: من أصوات البقر ، الغنم ، الظباء والسهام ، وقد خار يخور خوار : صاح"[٢].

ومن كل ما سبق يتبين أن الإله المتخذ لهم ، مصنوع من الذهب وعلى صورة العجل ، جسد بلا روح ، وله صوت كصوت العجل ، وإذا كان هذا العجل جسدا بلا روح ولا حياة فكيف جعل السامرى له صوتا كصوت العجل؟! اختلف الناس فى هذه الكيفية ، "فقال قوم : كان قد أخذ كفا من تراب حافر فرس جبريل -عليه السلام- فألقاه فى جوف ذلك العجل ، فانقلب لحما ودما ، وظهر منه الخوار مرة واحدة ، فقال السامرى : هذا إلهكم وإله موسى ! .. وقال الأكثرون : إنه قد جعل ذلك العجل مجوفا ووضع في جوفه أنابيب على شكل مخصوص ، وكان قد وضع ذلك التمثال فى مهب الريح ، فكانت الريح تدخل فى جوف الأنابيب ، فيظهر منه صوت مخصوص يشبه صوت العجل .. وقال آخرون : إنه جعل ذلك التمثال أجوف جوفه كالخوار ، وقال صاحب هذا القول : والناس قد يفعلون الآن فى هذه التصاوير التي يجرون فيها على سبيل الفوارات ما يشبه ذلك ، فهذا الطريق وغيره أظهر الصوت من ذلك التمثال ، ثم ألقى إلى الناس أن هذا العجل إلهاهم وإله موسى"[٣].

والقول الراجح ، والله أعلم : هو ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن السامرى لما صاغ العجل ، ألقى فى فمه ترابا من أثر فرس جبريل -عليه السلام- وهذا ما اختاره الإمام أبو السعود فى تفسيره[٤] كما دل عليه قوله تعالى حاكيا جواب السامرى حين سأله موسى عن الخطب ، فقال:"**قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي**"[٥].

ويا جهل هؤلاء القوم ، اتخذوا من دون الله مالا ينصرهم ولا ينفعهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين. قال عز من قائل :" **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين**"[٦] فهذا يدل على أن هذا العجل يستحيل أن يكون إلها من دون خالق الخلق أجمعين ، وتقرير هذا الدليل " أن العجل لا يمكنه أن يكلمهم ، ولا يمكنه أن يهديهم إلى الصواب والرشد ، وكل ما كان كذلك كان جمادا وإما حيوانا عاجزا ، وعلى التقديرين فإنه لا يصلح للألوهية"[٧].

---

[١] معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٣٧٧/٢ .
[٢] لسان العرب لابن منظور ١٢٨٥/٢ ، باب الخاء.
[٣] مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ٦/١٥ .
[٤] راجع إرشاد العقل السليم ٢٧٣/٣ .
[٥] سورة طه ، الآية: ٩٦ .
[٦] سورة الأعراف ، من الآية: ١٤٨ .
[٧] مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ٧/١٥ .

"وهذا تقريع لهم وتشنيع على فرط ضلالهم ، وإضلالهم بالنظر ، أي لم يروا أنه لا يقدر على ما يقدر عليه أحد البشر من الكلام ، وإرشاد السبيل بوجه من الوجوه ، فكيف عدلوه بخالق الأجسام ، والقوى القدرة"[1] يذكر الأستاذ/ محمد محمود حجازي فى هذا الشأن ما نصه :"ألم يروا أن هذا الإله لا ينطق ، ولا يكلمهم بواسطة رسول كموسى ، ولا هو يهديهم إلى خير أبدا ؟ .. فهل يعقل أن يكون هذا إلها ! .. والإله الحق هو الله -ﷻ- لو كان البحر مدادا لكلماته لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلماته ، وهو الهاد إلى الخير والرشاد بما ركب من العقول وبما أرسل من رسل"[2].

ونظير هذا قوله -ﷻ- :" **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا**[3]" .. وهذا النظير قد بين سببا آخر لعدم استحقاقه للألوهية ، وهو أنه لا يملك لهم الضر ولا النفع ، فالضار والنافع هو خالقهم ومولاهم ؛ لذلك كانت نصيحة هارون -عليه السلام- لهم بأن يذكرهم بالرحمن ، فقال تعالى على لسان نبيه هارون :"**ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري**"[4] .. أى أن هذا الإله لا يصلح للربوبية ، وربكم هو الله الخالق لكم النافع والضار ، الذى يملك الهداية والضلال ، فارجعوا إليه وأنيبوا وتضرعوا إليه لعله يرحمكم ويغفر ما فرط منكم . ولكن يبدو أن هذه طبيعة بنى إسرائيل ، التى ما تكاد تستقيم خطوة إلا والتوت أخرى ، يقول المرحوم سيد قطب:"إنها طبيعة بنى إسرائيل التى ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوى عن الطريق ، والتى ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية فى التصور والاعتقاد ، والتى يسهل انتكاسها كلما فترت عن التوجيه والتسديد"[5] وبهذا الفعل الشنيع قد ظلم هؤلاء القوم أنفسهم ، قال تعالى :" **اتخذوه وكانوا ظالمين**"[6] قال الإمام القرطبى – رحمه الله :"صاروا مشركين لجعلهم العجل إلها"[7] وقال الإمام أبو السعود: "واضعين للأشياء فى غير موضعها ولم يكن هذا أول منكر فعلوه"[8].

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة:"**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون**"[9] ومن مظاهر هذا الظلم : أنهم بهذا الفعل الشنيع قد استعجلوا عقاب الله -ﷻ- وهذا ما أخبرهم به سيدنا موسى -عليه السلام- عقب رجوعه إليهم ، قال عز من

---

[1] روح المعانى ٦٤/٩ .
[2] التفسير الواضح ٧٦٦/١ .
[3] سورة طه ، الآية: ٨٩.
[4] سورة طه ، من الآية: ٩٠ .
[5] فى ظلال القرآن لسيد قطب ١٣٧٣/٣ .
[6] سورة الأعراف ، من الآية: ١٤٨ .
[7] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الرابع ١٨١/٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .
[8] إرشاد العقل السليم ٢٧٣/٣ .
[9] سورة البقرة ، الآية: ٥١ .

قائل حاكيا عن سيدنا موسى -عليه السلام- :" **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم**"[1] .

والمقصود من قوله "أمر ربكم" :" أي ميعاد ربكم فلم تصبروا عليه ، وقيل : وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين ؛ وذلك لأنهم قدروا أنه لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة ، فقد مات ، وقيل : يريد أعجلتم سخط ربكم ، وقيل : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم"[2] قال الإمام الألوسى – رحمه الله :"أي أعجلتم عما أمر به ربكم وهو انتظار موسى -عليه السلام- حال كونهم حافظين لعهده وما وصاهم به فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ، ولم أرجع إليكم ؛ فحدثتم أنفسكم بموتى فغيرتم ، روى أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل : إن هذا إلهكم وإله موسى ، إن موسى لن يرجع وأنه قد مات ، وروى أنهم عدوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا"[3].

وخلاصة القول :أن أمر الله له معنيان :الأول : المحافظة على شريعة الله وانتظار موسى -عليه السلام- ، والثاني : سخط الله وغضبه عليهم ، يقول الإمام ابن عاشور:"الأمر يكون بمعنى التكليف وهو ما أمرهم الله به من المحافظة على الشريعة ، وانتظار رجوعه ، فلم يتموا ذلك واستعجلوا فبدلوا وغيروا ، ويجوز أن يكون بمعنى سبق أى بادرتم ، فيكون الأمر بمعنى الشأن أى الغضب والسخط ، كقوله :" **أتى أمر الله فلا تستعجلوه**"[4] .. وقوله "**حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور**"[5].. فالأمر هو الوعيد ، فإن الله حذرهم من عبادة الأصنام ، وتوعدهم ، فكان الظن بهم إن وقع منهم ذلك أن يقع بعد طول المدة ، فلما فعلوا ما نهوا عنه بحدثان عهد النهى ، جعلوا سابقين له على طريق الاستعارة ؛ شبهوا فى مبادرتهم إلى أسباب الغضب والسخط بسبق المسبوق وهذا هو المعنى الأوضح"[6] ولا مانع – والله أعلم – من إرادة المعنيين ؛ وهما الالتزام بشريعته حتى عودة موسى -عليه السلام- إليهم ، وكذلك غضبه وسخطه ؛ وذلك لأنهم بتبديلهم شرع الله ومخالفته قد استعجلوا غضبه وعقابه . ونظير هذا قوله تعالى فى سورة طه حكاية أيضا عن سيدنا موسى عند رجوعه إليهم :" **فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي**"[7].

---

[1] سورة الأعراف ، من الآية: ١٥٠ .
[2] مفاتيح الغيب ، المجلد الثامن ١٠/١٥ ، ١١ ، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، المجلد الرابع ١٨٣/٧
[3] روح المعانى ٦٦/٩ .
[4] سورة النحل ، من الآية: ١ .
[5] سورة هود ، من الآية: ٤٠ .
[6] التحرير والتنوير لابن عاشور ١١٥/٩ .
[7] سورة طه ، الآية: ٨٦ .

كان هذا هو استعجال قوم سيدنا موسى -عليه السلام- لأمر الله وعقابه ، وعجبا لهـؤلاء ! .. أيعبدون موسى أم رب موسى ؟! .. أبمجرد غياب نبيهم يعبدون غير الله ؟ ..أهم غافلون عـن حقيقة خالقهم ، وأن نبيهم لو مات فإن الله حى لا يموت .

تلك الحقيقة التى تدبرها أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- عندما انتقل رسول الله -ﷺ- إلى الرفيق الأعلى فخرج -رضي الله عنه- مناديا فى الناس قائلا : "أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمدا -ﷺ- فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت"[1].

[1] أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه " مطولا " ، كتاب الجنائز ، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه ٣٧٢/١ ، ٣٧٣ ، كما أخرجه أيضا فى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب قول النبى "لو كنت متخذا خليلا" ١١٢٨/٣ ، رقم الحديث (٣٦٦٨) مطولا ، كما أخرجه كذلك فى كتاب المغازى ، باب مرض النبى ﷺ ١٣٤٣/٣ ، رقم الحديث (٤٤٥٤) مطولا .